ظواهر ليست من الدين

المقدّمة

إنّ الفراغ الفكريّ والروحيّ والعقائديّ الذي يجتاح الأوساط الشعبية وبعض الأوساط التي تدّعي العلم والثقافة والوعي دفع بهذه الأوساط وكمحاولة للخروج من مشاكلها الحياتية والعاطفية، أو حبّاً في «معرفة» المستقبل وما قد يعترض مسيرتها في الحياة من نجاح أو إخفاق، من فقر أو غنى وما ترغب في تحقيقه من الآمال والأماني وما شاكل ذلك.. دفعها للّجوء إلى من توهّموا أنّهم يحقّقون لهم أهدافهم فيما يرغبون بتحقيقه، فلم يحصدوا إلاّ الهواء، علماً بأنّ من لجأوا إليهم قد استطاعوا ابتزازهم مادّياً إضافةً إلى اللّعب على عقولهم و عواطفهم...

ومِن هؤلاء مَنْ ادّعوا أنّهم «يؤاخون» الجنّ أو «يصادقونهم»، وأنّ هذه المؤاخاة والصداقة تخوّلهم معرفة «علم الجن». وما علمُ الجن؟ لا أحد يدري!! أو من ادّعوا أنّهم من خلال معرفتهم بعلم الأفلاك،يستطيعون قراءة الماضي والحاضر والمستقبل، وهم لا يستطيعون معرفة ماذا يوجد خلف أبواب بيوتهم....

ومن المهازل في هذا المجال أنّ الفضائيات دخلت في اللّعبة...فترى أحدهم يضحك على عقول المشاهدين، ويبني لهم قصوراً في الهواء،مع ممارسة عالية لفنّ الخداع في محاولة لإقناع المشاهد بصحّة ما يقول، وفاتورة هاتفه الجوّال تزداد في آخر الشهر أضعافاً مضاعفة....

و هكذا، هم من «يقرأون» الكفّ والمندل والفنجان أو «يكتبون» الأحراز بأشكالٍ ورسومات وطلاسم ليس لها أيّة أهميّة أومعنى معتبر...

إضافةً إلى ذلك،هناك ظواهر صار الاعتقاد بها راسخاً في مجتمعاتنا،كمثل«الإصابة بالعين» وطرد الإصابة من خلال «سكب الرصاص» أو «التداوي» بالقرآن بديلاً عن الطب الذي حقّق إنجازاتٍ راقيةً ومتقدّمةً على مستوى العلاج...

بكلمة،إنّ هذه الظواهر ليست من الدين في شيء، وقد أجاد سماحة العلاّمة الشيخ حسين الخشن في محاكمة هذه الظواهر مستدلاً بالبرهان العلميّ بأنّ أكثرها وَهْمٌ لا دليل على صحّته وشرعيّته....

ونختم بكلمة للفقيه المجدّد المرجع السيّد فضل الله(رض): «فهؤلاء الذين يدّعون تسخيرهم للجنّ وضرب المندل يبيعون الرجال والنساء أحلاماً واهمة، وكثيرٌ من الناس يعيشون الاستغراق في الوهم والخيال ويصدّقون من يضحك على عقولهم، لذلك نقول:احترموا عقولكم، ولا تجعلوا بعض الناس يعيشون على غبائكم...وإذا ما ابتلينا بمشكلة، فلنفكر كيف نحلّ المشكلة في الواقع، ولا نلجأ إلى هؤلاء لحلّها، لأنّ هؤلاء أنفسهم يلجأون إلى من يحلّ لهم مشاكلهم».

ونحن في المركز الإسلامي الثقافي يسرّنا أن ننشر هذه الدراسة تحذيراً لأجيال الأمّة من الذين يحاولون التلاعب بالعقول، ولنرسم لهم ثقافة الوعي التي تقطع الطريق على الذين يحاولون ترسيخ التخلّف في واقعنا...

**والله الموفّق و المسدّد**

مدير المركز الإسلامي الثقافي

شفيق محمد الموسوي

رمضان 1432 هـ

آب 2011 م

تمهيد

إنّ الوظيفة التقليدية التي رُسمت لعلم الكلام هي قيامه بتأصيل العقائد الإسلامية وتصحيح الانحراف العقدي والوقوف بوجه كلّ محاولات التشويه والتحريف المقصودة أو غير المقصودة، هذا التحريف أو الانحراف الذي أصاب الرسالات السماوية بأجمعها، وأساء ـ مع مرور الوقت ـ إلى نقاء بعض المفاهيم الدينية وعكّر صفوها.

فالجمود الذي أصاب علم الكلام لقرون طويلة، لم يُفقد هذا العلم ـ فيما نعتقد ـ حيويّته الاجتهادية وقدرته الذاتية على التجدّد شكلاً ومضموناً وحسب، بل أضعف من وظيفته الأساسية في الرصد المستمرّ والعمل على حياطة الدين بمنع تسلّل المفاهيم الدخيلة أو اجتياح الأفكار المشوهة، وغربلتها وتصحيحها، ووضع الحدود الفاصلة بين الحقائق والأوهام، والمقدّس والنسبي، والثابت والمتغير.

إنّ انكفاء أو نأْي علم الكلام عن القيام بهذه المهمّة المزدوجة: التجديديّة والرصديّة، أدّى ـ في نهاية الأمر ـ إلى انكفاء الإسلام نفسه عن التأثير المطلوب والتغيير المرجوّ في واقع الأمة، وفَسَحَ في المجال أمام أمريْن خطيريْن وهما:

1 ـ غزو الفكر الآخر واجتياحه لقطاعات واسعة من أبناء الأمة.

2 ـ انبعاث الفكر السلفي المتحجّر محمَّلاً ومعبّأً بكلِّ هموم الماضي ومشاغله.

هذه الأجواء هيّأت لانتشار جملة من المفاهيم العقدية المحرَّفة والمزوّرة، التي تمّ تسويقها وترويجها بطريقة مغايرة لحقيقتها، ومضادّة لروح الدين ومقاصده وأهدافه.

ومردّ ذلك التحريف يعود إمّا إلى ما أقحمته أو أضافته الذهنية الشعبية الساذجة إلى تلك المفاهيم من عاداتها وتقاليدها وطقوسها الموروثة، مركّبة من ذلك ديناً ارتضته لنفسها، وإمّا إلى التشويه المتعمَّد الذي طاول هذه المفاهيم. هذا التشويه الذي قامت به فئات عديدة من المتضرّرين من الدين الجديد ومفاهيمه الإصلاحية، فجهدوا للكيد به، وعملوا على تحريف مفاهيمه.

والحقيقة أنّ التحريف المذكور أخذ شكليْن في الغالب:

أحدهما: استهداف المفاهيم الدينية الأصلية، أي أنّ المفهوم المستهدَف له جذوره الدينية الثابتة قبل تعرّضه للتحريف المادي أو المعنوي.

الثاني: أن يتمّ استيلاد مفهوم ما خارج الفضاء الديني، ثم تجري محاولة إلباسه لبوساً دينياً.

في الشكل الأول من التحريف تبرز أمامنا جملة من النماذج، وقد تطرّقنا إلى ذلك بشيءٍ من التفصيل في كتاب «عاشوراء.. قراءة في المفاهيم وأساليب الإحياء»، واستعرضنا هناك عدداً من المفاهيم الدينية التي طالتها يد التشويه والتلاعب، كمفهوم القضاء والقدر، هذا المفهوم الإسلامي الأصيل، والذي تمّ تشويهه وتفسيره بما يرادف عقيدة الجبر، وكغيره من المفاهيم..

وأمّا الشكل الثاني من التحريف، فإننا نخصّص له هذه الدراسة، والتي نتناول فيها جملة من المفاهيم المزوّرة والاعتقادات الدخيلة.

إنّ هذه الاعتقادات أو الطقوس أو «الشعائر» التي سوف نتناولها بالبحث والدراسة هنا تضمّ مفردات من قبيل: التنبّؤات الفلكية، نحوسة الأيام، التشاؤم أو الطِّيَرة، الرّقى والأحراز، الإصابة بالعين، الحظ والنّصيب، إلى غير ذلك من المفردات التي ينتشر الاعتقاد بها في مختلف الأوساط الشعبيّة وغير الشعبيّة على امتداد العالمين العربي الإسلامي، بل وفي كلّ أنحاء العالم، ويحاول الكثيرون إضفاء طابع ديني عليها.

والسؤال الذي يواجهنا: ما هو الموقف من هذه المعتقدات؟ هل إنّ لها واقعية ومصداقية، أم أنها مجرّد أوهام وخرافات؟ هل يؤيّدها العلم ويقرّها الدين؟ هل نؤمن بها ونرتّب الآثار عليها ونتحرّك في ضوئها، أو ننكرها ونرفضها، ونحاصر الأشخاص الذين يأخذون بها ونقاطعهم؟

وما تجدر الإشارة إليه أنّ هذه البحوث قد نُشر بعضها في وقت سابق على صفحات بعض الجرائد، ونشرتها أيضاً بعض المواقع الإلكترونية، وقد أعدنا النظر فيها، وأضفنا إليها أبحاثاً أخرى، تجمعها وإياها وحدة الموضوع، فكان هذا الكتاب الذي نقدّمه للقراء الكرام، سائلين الله العليّ القدير أن يجدوا فيه ما يوضّح بعض المفاهيم الملتبِسة ويضيء على بعض الطقوس المزوّرة والمعتقدات الدخيلة والمعيقة لنهوض الأمة وتطوّرها وأخذها بزمام التقدّم العلمي والتكامل الروحي، كما ونسأله تعالى أن ينفعنا بذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم، إنّه هو وليّ التوفيق.

حسين أحمد الخشن

27/رجب/1432 هـ

في القواعد العامة

من الطبيعي وقبل البدء بدراسة المفردات المذكورة دراسة تفصيلية ومستوعبة، وقبل تبنّي أي موقف منها سلبيّاً كان أو إيجابيّاً، أن نركّز النظر على بعض القواعد العامة التي تحكم عملية البحث في هذه المفردات، وتشكّل مدخلاً أساسياً لدراستها، كما أنّها توجّه الأنظار إلى كيفية التعامل مع هذه المعتقدات أو العادات وأمثالها، ممّا استجدّ أو قد يستجدّ..

هاتوا برهانكم

القاعدة الأولى: إننا عندما ندين بأمْرٍ ونؤمن به، أو نتنكّر له ونرفضه، فإننا لا نؤمن به مزاجياً أو لانسجامه مع مصالحنا وأهوائنا، ولا نتنكّر له اعتباطاً، أو لأنّ الناس لا تقبله، فهذا أو ذاك ليس هو معيار الإيمان وعدمه، وإنّما المعيار هو الحجّة والبرهان، ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[البقرة: 111]، وثمة عبارة مشهورة على ألسنة العلماء تعبّر عن هذا المعنى خير تعبير، وهي قولهم: «نحن أبناء الدليل كيفما مال نميل»، إلاّ أنّ السؤال المهم هنا: ما هو الدليل وما هي الحجة في هذا المقام؟ هذا ما سيتّضح في القاعدة الثانية الآتية.

ولكنّ ما أريد التأكيد عليه في هذه القاعدة هو أمران:

الأوّل: إنّ الأدلّة ـ في بعض الأحيان ـ قد لا تسعفنا على الاعتقاد بالشيء والإيمان به، وفي هذه الحالة، لو أنها أسعفتنا على النفي والإنكار التزمنا بمفادها بدون حرج، وإن لم تسعفنا على الإثبات وعلى النفي معاً فليس لنا حينئذٍ أن نثبت أو ننفي، لأنّ الإثبات يحتاج إلى الدليل، وكذلك النفي، وإنّما يتعيّن علينا والحال هذه إبقاء القضية في بقعة الإمكان، وقد قيل: «كلّ ما طرق سمْعك فذره في بقعة الإمكان حتى يذودك عنه قاطع البرهان»[[1]](#footnote-1).

الثاني: إنّ الأدلّة التي يصحّ لنا الاعتماد عليها لا بدّ أن تكون مُورثةً لليقين أو الاطمئنـان، لأنّ الإسلام لا يقبل للإنسان أن يأخذ بالظنّ، فإنّ الظنّ ليس مصدراً صحيحاً للمعرفة، قال تعالى: ﴿وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كلّ أُولـئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً﴾[الإسراء: 36].

الوحي والعقل والعلم

القاعدة الثانية: تتمحور حول بيان الدليل الذي يشكّل مرجعاً في المقام، حيث يصرّ البعض على اعتبار التجربة العلميّة وما توصّل إليه العلم من معطيات هي المرجعيّة الوحيدة في محاكمة هذه المعتقدات، وتبنّيها أو رفضها، فنؤمن بما آمن به العلم وتوصّل إليه، ونرفض ما رفضه، ونحن مع إيماننا بدور التجربة في الكشف عن بعض هذه المعتقدات وتأكيدها أو نفيها، إلاّ أننا نرفض اعتبارها مرجعية وحيدة على هذا الصعيد، لأنّ بعض القضايا لا مجال لاختبارها من خلال الوسائل العلميّة التقنيّة. والإخلاص للعلم واحترامه يفرض علينا أن لا نُقحمه فيما لا يستطيع بأدواته أن يبتّ فيه سلباً أو إيجاباً.

ولهذا يمكننا القول: إنّ ما يصرّح به البعض من أنّه ما دامت التجربة والاختبار العلمي لم يُثبتا وجود الجان ـ مثلاً ـ، فإنّي أنكر وجوده، هو موقف غير صحيح من الناحية العلميّة والمنهجيّة، لأنّ للتجارب العلميّة حقلها الخاص الذي لا يصحّ تجاوزه، وهو عالم المحسوسات أو عالم الشهود، أمّا عالم الغيب والمجرّدات فلا يُختبر بالوسائل والأدوات العلمية المعروفة، وإخضاعه لذلك هو عمل غير منطقي ولا تفرضه قواعد العلم وضوابطه ومناهجه.

وفي المقابل، فإنّ الموضوعات العلميّة لا يمكن محاكمتها على أساس النصوص الدينية، كما قد يحلو للبعض من أهل التحجّر الذين يُشكّل النص مرجعيتهم الأولى والأخيرة، بحيث يقدّم لنا ـ هذا البعض ـ الدين كبديل عن علم الطب، مثلاً، ويقترح عقاقير ومعالجات لأمراض الإنسان، استناداً إلى بعض المأثورات، بحيث يكون علم الطب مبنيّاً على الأخبار والروايات، وليس على أساس البحث العلمي والجهد الإنساني، وربّما يذهب بعض الغلاة من الأخبارية في طرحه بعيداً، إلى درجة نفـي جـدوى كلّ العلـوم أو نفعها، لأنّ علم الحـديث ـ بنظرهم ـ يُغني عن ذلك كلّه، والوحي لم يَدَع شيئاً إلا وحدّثنا عنه. إنّ هذا التفكير لا يعبّر عن اشتباه كبير في فَهْم وظيفة الدين فحسب، بل أخال أنّه قد ساهم في تأخّر المسلمين على الصعيد العلميّ، لأنّه أورثنا زهداً، وربما استحقاراً لكافة العلوم والمعارف.

إنّ الإسـلام يقـدّر كلّ العلوم التي تهدف إلى خدمة الإنسان، ويحترم كلّ التخصّصـات التـي تـرمي إلى تطوير الحياة بشكلٍ عام، انطلاقاً من أنّ رسول الله P لم يُبعث ليكون طبيباً أو فلكياً، وإنّما بعث هادياً ورسولاً.

وخلاصة القول: إنّ لكلّ حقلٍ معرفيّ أدواته الخاصة ووسائله الإثباتية المناسبة له، ولا يجوز الخلط بين علم وآخر، فعالم الغيب له أدواته الخاصة التي تكشف عنه، وهي أدوات ذات منهج يتّفق مع طبيعة هذا العلم غير التجريبية، كما أنّ عالم الحسّ والشهود له أدواته الخاصة في إثباته والكشف عنه، وهي أدوات تعتمد على منهج تجريبي ولا يصحّ إخضاعه للمنهج الأخباري.

أجل إنّ بعض الحقول المعرفية قد يشترك في إثبات موضوعاتها كلٌّ من العلم والوحي معاً، كما في مقامنا، فإنّ للعلم دوره في الكشف عن بعض تلك المعتقدات، ولكنْ ثمة أمورٌ لا يستطيع العلم أن ينفيها أو يثبتها، وإنّما يقف إزاءها حيادياً، إلا أنّنا قد نمتلك وسائل إثبات أخرى قد يكون دورها الإثباتي فيما نحن فيه أكثر وضوحاً، وهذه الوسائل هي العقل والوحي، فالعقل هو المرجعية التي لا يسعنا تبنّي أي عقيدة إذا كان رافضاً لها، لكونها مصادمة لقواعده ومرتكزاته، والوحي هو الوسيلة التي يمكن الاعتماد عليها لإثبات أو نفي كلّ المعتقدات التي لا يمكن للعقل أو العلم التوصّل إلى إثباتها أو نفيها، وقد ورد في الحديث الشريف عن رسول اللهP: «إنّ لله على الناس حجّتين: حجّة ظاهرة وحجّة باطنة، فأما الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمةR، وأما الباطنة فالعقول»[[2]](#footnote-2).

لا يعلم الغيب إلاّ الله

القاعدة الثالثة: التي لا بدّ من وضعها في الحسبان لدى دراسة المعتقدات أو الطقوس أو العادات المشار إليها في المقدّمة والآتي بحثها بالتفصيل في ثنايا الكتاب هي قاعدة: «أنّ علم الغيب هو بيد الله وحده»، ففي المنطق القرآني، يمثّل علم الغيب منطقة يختصّ بها الله سبحانه، قال تعالى: ﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام: 59]، أما من عدا الله سبحانه فلا أحد يعلم الغيب، إلا مَنْ قد يمنّ الله عليه ويصطفيه، فيُطلعه على بعض المغيّبات ﴿إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً﴾[الجن: 27].

ويبرز هنا خلاف بين العلماء في حدود المغيّبات التي يُطلع الله عليها الأنبياء والرسلR، وذلك بين من يرى أنَّ الله أطلعه على كلّ المغيّبات، إمّا بحيث يكون لديه ملكة التعرّف على المغيّبات، ويكون علمه محيطاً بكلّ الأمور، كما يرى البعض بحيث لو أراد أن يعـرف شيئاً لعرفه، كما يرى آخرون، وبين مَنْ يرى أنّ علم النبيP بالغيب محصور في حدود معيّنة مما ألهمه الله به ممّا يحتاجه في رسالته ومهمّـته، فلا يعلم كلّ المغيّبات،كما يرى جمع آخر، استناداً إلى قوله تعالى: ﴿لَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاَسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَاْ إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[الأعراف: 188]، أو قوله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ الأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى النِّفَاقِ لاَ تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾[التوبة: 102]، إلى غير ذلك من الآيات والروايات.

وبصـرف النظـر عـن هذه الآراء وما هو الصائب منها، وإنْ كان القول الأخير ـ فيما نرى ـ هو الراجح وتساعد عليه الشواهد البرهانية والقرآنية، فإنّ الأمر الذي لا شك فيه أنّه وباستثناء الأنبياء والمعصومينR، لا يتسنّى لأحد الاطّلاع على الغيب والإخبار عنه.

وإنّ التأكيد على انحصار علم الغيب بالله وبمن يصطفيه من رسول، هو أمرٌ له أهمّيته الخاصة في مقامنا، لأننا بصدد دراسة جملة من «المعتقدات» التي يزعم أصحابها أنهم يكشفون عن الحوادث قبل وقوعها، أو يخبرون عن الأشياء الغائبة عن الأبصار من دون الاعتماد على الحواس أو الأسباب المعروفة والمألوفة، وتلقى هذه المزاعم صدىً واسعاً وآذاناً صاغية لدى جمهور عريض من الناس، ومما يزيد من رواج هذه الأفكار ويضاعف عدد المؤمنين بها: أنّ لدى الإنسان تطلّعاً غريزياً وفطرياً للتعرّف على المغيّبات وما ينتظره في مستقبل الأيام، ومردّ ذلك إلى خوفه من المجهول وسعيه الحثيث لتفادي المخاطر والأضرار التي يمكن أن يتعرّض لها، وهذا التطلّع الفطري يتضمّن ـ في حقيقة الأمرـ اعترافاً بعجز الإنسان وضعفه، وإقراراً بمحدودية قدراته إزاء ما تخبّئه له الأيام، كما لا يخلو من اعتراف ضمني بأنّ ثمة مؤثرات غير مرئية في الحياة.

وقد لجأ بعض تجّار الدين إلى استغلال هذا التطلّع الغريزي واستخدام شتى الأساليب التمويهية التي توحي بقدرتهم على معرفة المغيّبات في محاولة للكسب الرخيص والتعيّش من خلال هذا الطريق، ولا يلجأ إلى استخدام هذه الأساليب ـ في الأعمّ الأغلب ـ إلا الفاشلون في الحياة الذين لم يحقّقوا نجاحاً أو حضوراً في ميادين العلم والعمل.

وقد كانت واحدة من مهام الأنبياء مواجهة هذه الظاهرة ومنع هذا الاستغلال الرخيص وهذا التمويه والتلاعب بعواطف الناس ومشاعرهم، لأنّه لا يستند إلا على تخرّصات وأوهام ما أنزل الله بها من سلطان، والغيب لا يعلمه إلاّ الله، ولو أنّه تعالى أراد لأحد أن يكون ناطقاً عنه في الكشف عن المغيّبات لكان أولى الناس بذلك هم الأنبياءR.

اعتماد منطق الأسباب والمسبّبات

القاعدة الرابعة: ضرورة رعاية القوانين الطبيعية، واعتماد منطق الأسباب والمسبّبات، لأنّ الكون برمّته تُحرّكه ـ كما أراد الله ـ جملةٌ من القوانين، وتحكمه رزمة من المبادىء التي لا تتخلّف، ومن الطبيعي أن نتحرّك في هذه الحياة وفق هذه القوانين وبوحيٍ من تلك المبادىء، وأن ننقاد لها ونقرّ بنتائجها، وكلّ محاولة لتجاوز هذه القوانين أو القفز فوقها وتخطّيها ليست سوى محاولة للبقاء في مستنقع التخلّف والجهل، حتى لو تمّ تغليف تلك المحاولة بغلافٍ ديني وأُلبست لبوس القداسة، وأعتقد أنّ أبلغ وأعظم جناية على الدين هي وضعه في مقابل السنن والقوانين الحاكمة على هذا الكون، وهذا ما حصل في تاريخ الأديان، ولا يزال يحصل إلى يومنا هذا، وأسوأ منه أن يتمّ تخطّي القوانين باسم الدين، وذلك عندما تربط الحوادث والأشياء كلّها بالله سبحانه بشكلٍ مباشر ويُتنكّر لأسبابها التكوينية، لنكون أمام مسار كارثي، نتجت عنه جملة من النتائج المدمّرة على المستوى الحضاري، إذ غدا البعض منا يطلب النصر من الله سبحانه مباشرة دون أن يتكلّف عناء الإعداد والاستعداد،أو يطلب الشفاء منه تعالى دون الرّجــوع إلى الأطبـاء،لأنّ الله ـ بزعمه ـ بيده المرض وبيده الشفاء.. في تجاوزٍ لمنطق الأسباب والسنن الحاكمة، بل ربما اعتقد بعضهم أنّ اللجوء إلى تلك الأسباب منافٍ لصفاء الاعتقاد بوحدانية الله، وهنا مكمن الخطر، لأنّه عندما يتمّ تجاوز القوانين والأسباب بهدف اللجوء إلى الله بشكلٍ مباشر، فذلك منهج خاطىء بالتأكيد، أمّا أن يتمّ تخطّي تلك القوانين باسم الدين بحجّة أنّ الرجوع إليها ينافي صفاء العقيدة فتلك كارثة، لأنها تمثّل إساءة للدين وأهله وتضعه في مواجهة مباشرة مع قانون السنن ونظام التكوين.

ولهذا فإنّنا نقولها وبكلّ صراحة: إنّ واحداً من أخطر المفاهيم العقدية التي طاولتها يد التشويه والتحريف هو مفهوم التوحيد الأفعالي أو الفاعلي (ويُراد به أنّ الله تعالى هو الفاعل والمؤثر في كلّ الكائنات والحوادث)، حيث تمّ تفسيره بطريقة مصادمة لسُنّة رئيسة من سنن الله في الخلق، بل قل: مصادمة لأهمّ قانون ارتكزت عليه البشرية في نهضتها وتطوّرها، أعني به قانون العلية والمعلولية، المعبّر عنه في بعض المأثورات الدينية بجملة: «أبى الله أن يُجري الأشياء إلاّ بأسبابٍ، فجعل لكلّ شيءٍ سبباً»[[3]](#footnote-3). إنّ هذا القانون الذي تدين له الإنسانية في حضارتها، قد تمّ رفضه من قِبَل بعض الفرق الكلامية الإسلامية الكبيرة، وذلك بزعم منافاته مع عقيدة التوحيد، لتكون النتيجة ـ بنظر هؤلاء ـ أنّك لو اعتقدت بأنّ النار هي سبب الإحراق أو علّة الحرارة فقد أشركْتَ بالله وجعلْتَ في الكون مؤثّراً غيره والصحيح ـ في نظر هؤلاء ـ أنّ الذي أوجد الحرارة أو الإحراق هو الله ولا دخْل للنار في ذلك إطلاقاً، غاية الأمر أنّ عادته تعالى جرت على إيجاد الحرارة عند وجود النار دون أن تكون هناك رابطة بين الأمرين، أعني النار والحرارة، أو الشمس والضياء! وهكذا فالإنسان إذا أكل حتى شبع، فإنّه لا يشبع بسبب الأكل، وإنّما شبع عند الأكل، وإذا كسر زجاجة فهي لم تنكسر بكسره، بل عند كسره، فالمسألة مسألة اقتران لا سببية، يقول بعض علماء الأشاعرة في منظومة له في العقيدة الأشعرية:

والفعل في التأثير ليس إلا

للواحد القهار جلّ وعلا

ومَنْ يقل بالطبع أو بالعلّة

فذاك كُفْرٌ عند أهل الملّة

ومَنْ يقل بالقوّة المودعة

فذاك بدعي فـلا تلتفـتِ[[4]](#footnote-4)

وإنكار التأثير والسببيّة ـ بنظر هؤلاء ـ لا يقتصر على الظواهر الطبيعية والجمادات والحيوانات، بل يمتدّ إلى الإنسان نفسه، فإنّ أفعال هذا المخلوق العاقل ليست تحت قدرته ولا هو الموجِد لها، بل لو اعتقد أحد أنّه الموجِد لما يصدر عنه من أفعال، سواءً الطاعات منها أو المعاصي، فقد أشرك بالله وجعل له ندّاً، والصحيح عند هؤلاء أنّ الخالق لأفعال العباد هو الله، والعبد مجرّد محلّ لها. يقول الشريف الجرجاني في شرح المواقف: «إنّ أفعال العباد الاختيارية واقعة بقدرة الله سبحانه وحدها، وليس لقدرتهم تأثير فيها، والله سبحانه أجرى عادته بأن يوجِد في العبد قدرة واختياراً... فيكون فعل العبد مخلوقاً لله إبداعاً وإحداثاً، ومكسوباً للعبد، والمراد بكسبه إياه: مقارنته لقدرته وإرادته من غير أن يكون هناك منه تأثير ومدخل في وجوده سوى كونه محلاً له، وهذا مذهب الشيخ أبي الحسن الأشعري»[[5]](#footnote-5).

إنّ هذا الاعتقاد الخاطىء الذي ينسف مبدأ العلية أدّى إلى اغتيال الإبداع لدى العقل، لأنّه تضمّن دعوةً صريحةً لا لبس فيها إلى تجميد العقول عن التفكير في علل الأشياء وأسبابها، فليس عليك، بل ليس لك أن تفكّر في علّة المرض أو الكسوف أو الخسوف أو غيرها من الظواهر الطبيعية، لأنّ علّة ذلك كلّه هي الله سبحانه، ولا رابطة بين الظاهرة وما يُرى من آثارها، فارتفاع حرارة المريض لا علاقة لها بالمرض، وإنّما هو محض تقارن اتفاقي، وهكذا الحال في سائر الأمثلة.

إنّ هذا المنطق إذا ما ساد في أمّة من الأمم فلا تسأل بعد ذلك عن سرّ تخلّفها وتقهقرها وتبدّد طاقاتها وتفشّي الجهل فيها. ولعلّ هذا هو ما حدا بأحمد أمين، الكاتب المصري المعروف، أن يتمنّى عودة الفكر المعتزلي إلى الحياة الإسلامية، لأنّه لو ظلّ سائداً، «لكان للمسلمين موقف آخر في التاريخ غير موقفهم الحالي، وقد أعجزهم الضعف وشلّهم الجبر وقعد بهم التواكل»[[6]](#footnote-6).

القرآن وقانون العلية

والحقيقة أنّ نهوض الأمّة لا يتوقّف على استعادة مذهب الاعتزال أو الفكر المعتزلي، بل إنّه يتوقف على إحياء المنطق القرآني واستحضاره، فإنّ هذا المنطق يؤكّد وبوضوح على قانون العلية وإسناد الظواهر إلى أسبابها الطبيعية، والآيات القرآنية التي تسند الأفعال إلى ظواهر طبيعية أو إلى إرادة الإنسان كثيرة، ولا مجـال لاستعراضهـا فــي المقـام، وعلـى سبيـل المثـال، فـإنّ قولـه تعـالـى:﴿مَّثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كلّ سُنبُلَةٍ مِّئَةُ حَبَّةٍ﴾[البقرة:261]، يدلّ بوضوح على استناد نبات السنابل إلى نفس الحبّة، وهكذا عندما نقرأ قوله تعالى:﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾[الرعد:11]، فإنّنا نستلهم منها صراحة قاعدة هامة وعامة مفادها: أنّ الإنسان هو الذي يصنع الأحداث ويغيّر مجرى التاريخ، وأنه ليس مجرد ريشة في مهبّ الريح. وقد عبّر عن هذا المعنى الحديث المتقدّم المرويّ عن الإمام الصادقQ خير تعبير، قال Q ـ فيما رُوي عنه ـ: « أبى الله أن يجري الأشياء إلاّ بأسبابٍ، فجعل لكلّ شيء سبباً، وجعل لكلّ سبب شرحاً، وجعل لكلّ شرح علماً...»[[7]](#footnote-7).

إنّ الغفلة القاتلة التي وقع فيها هؤلاء هو عجزهم عن المواءمة بين قانون العلية ومبدأ التوحيد الفاعلي، فتخيّلوا أنّ معنى التوحيد المذكور هو أنّ الله سبحانه هو العلّة المستقلّة والمباشرة لكلّ الأحداث الكونية، الأمر الذي اضطرّهم إلى رفض قانون السببية أو العلية، مع أنّ الاعتقاد بوحدانيته تعالى في الخالقية وجعل التأثير بيده، لا ينفي التأثير عن سائر العلل الطبيعية، لأنّ تأثير هذه العلل ليس على نحو الاستقلال بل هو يستند في نهاية المطاف إليه تعالى، فتأثيرها في طول تأثيره لا في عرضه، لأنّه سبحانه هو الذي أوجد فيها خصوصية التأثير، فجعل في النار خصوصية الإحراق وفي الشمس خصوصية الإشراق، وهكذا في سائر الأمثلة، ما يعني أنّ مبدأ العليّة أو السببية ليس فقط لا ينافي التوحيد، بل يؤكّده وينسجم معه تمام الانسجام.

بين التوكّل والتواكل

وغير بعيد من هذا السياق فقد حصلت غفلة أخرى عن المغزى الحقيقي لمبدأ التوكّل على الله والاعتماد عليه في كلّ الأمور،كطلب الرزق أو الشفاء أو إنجاب الأولاد أو تحقّق النصر، فقد خُيّل للكثيرين أن التوكّل يتنافى واللجوء إلى الأسباب الطبيعية، وهذا التخيّل هو الذي مهّد لانتشار ثقافة الاستشفاء بالأحراز أو القرآن، وطلب الرزق أو النصر بمجرد الدعاء والتوسّل، وبعيداً من الأخذ بأسباب ذلك، مع أنّ المتأمّل في سيرة المسلمين الأوائل قبل غيرهم، يُدرك أنّ ما توصّلوا إليه من انتصارات على مختلف الجبهات وفي شتى الميادين العلمية والعسكرية والطبية... إنما كان ثمرة طبيعية لاعتمادهم على مبدأ العليّة، فهُم لم يفهموا من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء: 80] أنّه دعوة إلى ترك التداوي بالطرق الطبيعية، وإنما فهموا أنّه يشفي من خلال الأسباب الطبيعية، كما سنوضّح لاحقاً، وهكذا الحال في الرزق والنصر وطلـب الـولد... فإنّ جعل هذه الأمـور بيـده تعالى لا يتنافى مع الأخذ بالأسباب، ولذا أَمَر سبحانه بإعداد القـوة ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُـم مَّـا اسْتَطَعْتُـم مِّن قُوَّةٍ﴾[الأنفال:60]، وأمر النبيP والأئمة R بالتداوي والتكسّب، بل خرجوا بأنفسهم في طلب الرِّزق ومواجهة العدو..

النظرة التبخيسية للدنيا

ومن علامات وإمارات التشوّه المفاهيمي التي أشاعت روح الاتّكالية وسمحت بتسرّب أو تغلغل المعتقدات والعادات التي تستغلّ الدين وتوظّفه بطريقة سلبية وتحوّله إلى «دكان» للاتجار به: اختلال النظرة المتوازنة للدنيا والآخرة، واعتبار أنّ طلب علوم الدنيا لا يتناسب مع التديّن ولا ينسجم مع التقوى، اعتماداً على رؤية مجتزأة لمفهوم الزهد، وقراءة خاطئة للمأثورات الدينية التي تزهّد في الدنيا وتذمّ التعلّق بها، الأمر الذي أسّس لنظرة تفاضلية بين علوم الدين وعلوم الدنيا، فعلوم الدين ـ بناءً على النظرة التفاضلية ـ سواء ما يرتبط منها بالجانب المعرفي أو القانوني أو الأخلاقي، أشرف وأكمل من سائر العلوم، وهذه الفكرة وإن كانت صحيحة في الجملة وبشرطها وشروطها، بيد أنّ الأمر تجاوز حدّ التفاضل الذي يتضمّن اعترافاً بالاشتراك في الفضل مع ميزة للفاضل على المفضول إلى حدّ التبخيس من شأن سائر العلوم والتزهيد بها، حتى غدا الاشتغال بعلم الطب أو الفلك غير لائق بالإنسان الإلهي كما يعتقد صدر الدين الشيرازي...[[8]](#footnote-8)!

إننّا وأمام هذا النمط من التفكير الذي يبخس العلوم حقّها، ويهمّش دورها، لا يسعنا سوى القول: إنّ هذا مخالف لمنطق القرآن الكريم، الذي حارب الجهل والخرافة، واعتنى بالعلم النافع ودعا إلى السير التأمّلي في الآفاق والأنفس، والنظر في كلّ المخلوقات، لاكتشاف أسرارها وخصائصها، فاتحاً بذلك الباب واسعاً أمام كلّ المعارف والعلوم النافعة للإنسان في دينه أو دنياه، وقد عبّرت عن هذه النظرة المتوازنة للدنيا والآخرة الكلمة المعروفة «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً»[[9]](#footnote-9)، وفي الحديث النبوي:«العلم علمان: علم الأديان وعلم الأبدان»، وفي حديث آخر عن عليQ: «العلوم أربعة: الفقه للأديان، والطب للأبدان، والنحو للّسان، والنجوم لمعرفة الزمان»[[10]](#footnote-10).

إنّ الغفلة عن هذه الحقيقة والتشوّه الذي أصابها، أساء للإسلام وأثّر في شكلٍ سلبيّ على واقع المسلمين.

الأسباب النفسيّة

وربطاً بقانون العليّة المشار إليه، فإنّ علينا أن لا نغفل عن أنّ بعض الأسباب التكوينية، قد لا تكون واضحة لنا ولا بادية للعيان، بل ربما كانت خافية أو مجهولة، وتتبدّى مع مرور الزمن والتطوّر العلمي.

ومن هذه الأسباب التي من المفيد التنبيه عليها في مقامنا، والتي قد تنكشف بعض الألغاز الآتية بالالتفات إليها: العوامل النفسية والمؤثّرات الروحية، والتي بدورها قد يكون لها تأثير مباشر على صحة الإنسان الجسدية واستقراره العام، على اعتبار أنّ ثمّة ترابطاً واضحاً وجلياً ومثبتاً من الناحية العلميّة بين الوضعية النفسية للإنسان وبين الجهاز العصبي، وأي تأثّر سلبي للجهاز العصبي بفعل التوترات النفسية سوف ينعكس سلباً على جهاز المناعة لدى الإنسان ما يجعله عرضة لفتك الأمراض، ألا ترى أنّ بعض المرضى إذا أُحيط خبراً بأنّ لديه مرضاً عضالاً وخطيراً، فإنّ ذلك يؤثّر بشكلٍ سلبيّ على صحّته، وقد يؤدّي ذلك إلى استسلامه للمرض وانهزامه أمامه، ما قد يسرّع في اقتراب أجله، ولذا يعمد بعض الأطباء إلى إخفاء أمر المرض عن المريض في بعض المراحل التي يكون فيها المرض قد تمكّن من الجسم ولا ينفع معه العلاج كثيراً، ما يعني أنّ إخبار المريض بالأمر سيكون مضرّاً بحاله وليس مساعداً على تغلّبه على المرض وتماثله للشفاء..

والحالات النفسية كما تؤثر سلباً على صحّة الإنسان فإنّها تؤثّر عليها إيجاباً، ومن هنا نفهم ما يحصل أحياناً من أنّ المبتلى بوجع الرأس ـ مثلاً ـ وحيث يتعسّر في بعض الحالات إعطاؤه الدواء المناسب لذلك، فإنّه لو أُعطيَ من قبل الطبيب أو الممرّض أو غيرهما حبّة أخرى لا علاقة لها بوجع الرأس، بل ليست دواء أصلاً، مع إيهامه أنّها هي حبّة الدواء التي يأخذها فإنّها قد تترك أثراً إيجابياً على صحّته معادلاً لنفس الأثر الذي تتركه حبة الدواء.

وفي ضوء ذلك، يتّضح سرّ التأثيرالذي تتركه بعض الأمور الآتية التي لم تثبت واقعيّتها، سواء أكان تأثيراً إيجابياً، كما في الاستشفاء بآيات القرآن أو الرقى لمن يؤمن بذلك ويعتقد به، أو تأثيراً سلبياً، كما في تأثّر الشخص المعتقد بصيبة العين أو نحوسة الأيام في حال نظر بعض العيون إليه، أو مسيره في بعض الأيام التي يعتقد بنحوستها، إنّ هذه الأمور وإن لم تثبت واقعيّتها إلاّ أنّ ذلك لا يمنع من تأثيرها بسبب قناعة الشخص بمؤثّريتها ما يجعله مهيّأً نفسيّاً للتجاوب والتفاعل معها.

في الخلاصة

وفي ختام الحديث عن القواعد العامة، لا بدّ من التأكيد على أنّ موقفنا الرافض لبعض الاعتقادات والعادات والشعوذات الآتية يرتكز على عدة عناصر:

أولاً: إنّ السَّير في هذه الطرق فيه تعطيل للقوانين وتهرّب من المسؤوليات ومحاولة إلقاء اللائمة على الغير، كما ويعكس ذلك روحاً اتكالية انهزامية تميل إلى الدَّعة والكسل، وغير خفيّ على من قرأ كتاب الله قراءة تدبّر ووعي أنّه دعا إلى السير وفق منطق السنن، واعتماد قانون العلية القاضي بأنّ لكلّ مسبّب سبباً، ولكلّ معلول علةً، سواء على المستوى الاجتماعي أو السياسي أو الاقتصادي، فضلاً عن النظام الكوني برمّته.

وفي ضوء ذلك يتّضح أنّ انتشار هذه الظواهر وتفشّيها في المجتمع ـ أي مجتمع ـ يعبّر عن حالة مرضيّة تكشف عن ضعف الإيمان أو تدنّي المستوى الثقافي والعلمي لدى أبنائه.

ثانياً: إنّ في اعتماد هذه الأساليب واللجوء إلى هذه الشعوذات تجميداً للعقل الذي اختص الله به الإنسان، وأراد له أن يتحرّك وفق مدركاته، وفي الحقيقة، فإنه يمكنني القول: إنّ هذا أحد مصاديق هدر العقول،كما أنّه هدر للأموال والأوقات دون جدوى.

ثالثاً: إنّ اللجوء إلى هذه الأساليب يشكّل استخفافاً بالدين، واستغلالاً رخيصاً له، على اعتبار أنّ غالبية هؤلاء الذين يلجأون إلى هذه الأعمال يحاولون إضفاء صبغة دينية وشرعية على أعمالهم، ويحاولون ربط تصرّفاتهم بالدين ونصوصه المقدّسة.

ومن هنا، فإنّ من اللائق بالمؤمن أن يكون أبعد الناس عن اللجوء إلى مثل هذه الشعوذات، لمنافاتها للنصوص الدينية، ولمجافاتها لروحية التسليم لله سبحانه وتعالى في كلّ الامور، هذه الروحية التي تمنح المؤمن الاستقرار الداخلي والاطمئنان النفسي والرضا بما قسمه الله له.

انتشار هذه المعتقدات

إنّ الاعتقاد بهذه الأمور التي سنتناولها بالدراسة التفصيلية ليس أمراً جديداً على واقعنا، بل له جذور قديمة لدى مختلف الأمم والشعوب، فقد عرفه العرب في الجاهلية ومارسوا الكثير من هذه الأمور كما عرفه الغربيون في القرون الوسطى، وما قبلها، حيث كانت «كلّ الطبقات من سكان بيزنطيا تؤمن بالسحر والتنجيم والتنبّؤ بالغيب والعرافة والاتصال بالشياطين والتمائم ذات القوة المعجزة»[[11]](#footnote-11). ولا تزال هذه المعتقدات منتشرة إلى يومنا هذا لدى مختلف الشعوب رغم تطوّر الإنسان وتقدّمه.

وفيما يلي من أبحاث سنتوقّف عند أهمّ المفردات التي لا صلة لها بالدين، لنناقشها وندلّل على وهنها وضعفها وعدم ارتباطها بالدين لا من قريب ولا من بعيد.

المفردة الأولى  
 التنبّؤات الفلكية واستطلاع المغيّبات

ربما يُهيّأ للإنسان أنّ التقدّم العلميّ والتراكم الثقافيّ والمعرفيّ الذي بلغ الذروة، واستطاع أن يفكّ الكثير من الرموز ويوضح العديد من الألغاز والأسرار في هذا الكون لا بدّ أن يساهم في تراجع ـ إنْ لم نقل تلاشي ـ جملة من العادات والطقوس البالية، ومنها: عادة التنجيم والتنبّؤ بالأحداث قبل وقوعها، والتي تولاّها جماعة من الناس شكّلوا ظاهرة بارزة في التاريخ الإنساني عموماً والإسلامي تحديداً، وحملوا أسماء وعناوين متعدّدة من قبيل: المتنبّئين، والمنجّمين، والكهنة، والعرّافين... إلى غير ذلك من العناوين والتسميات التي كان لأصحابها مكانة عالية ومرموقة عندما كان الجهل مستحكماً والأميّة متفشية، هذا ما كنّا نتوقّعه وما يُخيَّل إلينا، إلا أنّ الأمر سار ويسير على عكس التوقّعات، فالظاهرة المذكورة ورغم التقدّم العلمي تنتشر يوماً بعد يوم، ولم يساهم تقدّم البشر على الصعيد العلمي والثقافي في تحجيمها، بل ازداد جمهورها، وابتُكرت أساليب جديدة في التنبّؤ بالمغيّبات، وقد ساهمت وسائل الإعلام والإعلان في تعميمها على نطاق واسع، حتى أصبحنا اليوم أمام «نجوم» من المتنبئين الذين سوّقتهم الفضائيات، وغدا لكلّ واحد منهم جمهور عريض يرجعون إليه ويستفتونه حول ما تخبئه لهم الأيام وينتظرهم في قادم الزمان، فيما يتّصل بحياتهم الشخصية والعائلية والاجتماعية... وعمّا سيحدث على المستوى السياسي والاقتصادي.. ويُحكى أنّ بعض كبار السياسيين يعتمدون على بعض العرافين في معرفة مستقبلهم السياسي والشخصي، بل ربما يحكى ذلك عن بعض الأطباء وغيرهم من حملة الشهادات الجامعية.

والسؤال: كيف نفسّر هذه الظاهرة؟ وكيف نفهم هذا الإقبال من بعض المتعلّمين وبعض المتديّنين فضلاً عن غيرهم على هؤلاء العرّافين والمنجّمين؟

وهل يمكننا الاعتماد على تنبّؤات العرّافين والمنجّمين والسَّحَرة، أو الذين يقرأون الفنجان أو الكف أو القرآن الكريم وغيرهم، ممن يدّعون المعرفة بمصير الناس، أو بالأحداث التي ستقع في مستقبل الأيام، وتصديقهم فيما يخبرون عنه ويتوقعونه من أحداث، أو أنّه لا يصحّ الاعتماد على إخباراتهم، لأنّها ليست سوى تخرّصات ورجم بالغيب وقول بغير علم؟

سبب انتشار الظاهرة

فيما يرتبط بهذه الظاهرة وسرّ انتشارها حتى في أوساط المتعلّمين، فإنّنا لا نجد سبباً مقنعاً لذلك، سوى قلق الإنسان على مستقبله، وتطلّعه إلى ما تخبّئه له الأيام من مخاطر وما ينتظره من مفاجآت أو يواجهه من تحدّيات.. إنّ هذا القلق يُحفّز الإنسان ويدفعه إلى استطلاع المغيّبات بشتى الطرق والوسائل، وإنَّ ضعف الإيمان بالله، بما يختزنه الإيمان من الرضا بقضائه وقدره تعالى والتسليم بما قسمه لعباده، سوف يزيد من قلق الإنسان وتطلّعه للتعرّف على الأحداث التي تنتظره، ولا سيّما فيما يكيده له الآخرون، فهذه الظاهرة إذن تشكّل علامة ومؤشّراً على ضعف الإيمان الحقيقي، لأنّ المؤمن حقّاً ومع أخذه بقانون الأسباب والمسبّبات وعمله بقاعدة الحيطة والحذر فإنّه يوطّن نفسه ـ باستمرارـ على الرضا بما قسمه الله له، ويطلب من الله أن يعينه على ذلك: «ورَضِّني من العيش بما قسمت لي»[[12]](#footnote-12)، ولسان حاله على الدوام: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة : 51]

أصناف المتنبّئين

ثم إنّه وقبل الحديث عن موقفنا من هذه الظاهرة، لا بدّ لنا أن نشير إلى أنَّ المتنبّئين، ليسوا صنفاً واحداً، بل هم أصناف مختلفة تتنوّع وتتعدّد بتعدّد مصادرهم التي يستندون إليها في إخباراتهم، وإليك أهم هذه المصادر:

1 ـ الإلهام، فإنّ بعضهم يدّعي إلهاماً خاصاً رأى بموجبه صورة حدثٍ من الأحداث في حال اليقظة، كأن يرى صورة طائرة تسقط، أو نار تشتعل، أو دماء تسيل...

2 ـ فراسة العين، حيث يعمد بعض الأشخاص ممن يمتلكون فطنة وذكاءً إلى التعرّف على أحوال الآخرين، وتقييم أدائهم من خلال التأمّل في قسمات وجوههم وتعبيرات أجسادهم، مما يُعرف اليوم بلغة الجسد .

3 ـ الاتصال بالجنّ، وهو ما قد يُسمّى بالكهانة، والتي كانت شائعة في الجاهلية ، والكاهن في اللغة هو الذي يُخبِر عمّا هو كائن في مستقبل الزمان[[13]](#footnote-13)، وقد يطلق على الكاهن اسم العرّاف، وقيل: العرّاف كالكاهن إلاّ أنّ العرّاف يختص بمن يخبر عن الأحوال المستقبلة، والكاهن بمن يخبر عن الأحوال الماضية[[14]](#footnote-14)، ومستند العرّاف أو الكاهن في إخباراته هو التواصل مع الجن، وقد قيل: الكهانة: هي عمل يوجب طاعة الجان للكاهن.

4 ـ الاستناد إلى حركة النجوم، واستنباط أحوال الناس لجهة الصحة والمرض، السعادة والشقاء، الغنى والفقر، على ضوء اختلاف الأوضاع الفلكية، أو وضعية الطالع، ويطلق على الذي يمتهن ذلك اسم المنجّم.

5 ـ قراءة الفنجان أو الكفّ أو ورق خاص نظير ورق «الشدّة»، واستطلاع حال الشخص وما ينتظره من خلال ذلك، ونلاحظ أنّ هذه الأمور ولا سيما الأخيرة منها ـ أعني الاستناد إلى الورق في التعرّف على مستقبل الأشخاص ـ منتشرة في زماننا، حتى أنّ بعض الفضائيات تخصّص لذلك برامج أسبوعية، يتولّى خلالها بعض المتنبّئين التواصل مع الناس تليفونياً والكشف عمّا ينتظرهم أو قد يواجههم.

وقد أشارت بعض الأخبار إلى تنوّع المصادر التي يستند إليها المتنبؤن ، ففي الحديث الذي رواه الطبرسي في الاحتجاج، سأل الزنديق أبا عبد اللهQ: فمن أين أصل الكهانة ومن أين يخبر الناس بما يحدث؟ قال: «إنّ الكهانة كانت في الجاهلية في كلّ حين فترة (انقطاع) من الرسل، وكان الكاهن بمنزلة الحاكم يحتكمون إليه فيما يشتبه عليهم من الأمور، فيخبرهم بأشياء تحدث، وذلك من وجوه شتى: فراسة العين، وذكاء القلب، ووسوسة النفس، وفطنة (أو فتنة) الروح مع قذف في قلبه..»[[15]](#footnote-15)

وقال ابن الأثير في النهاية: «وقد كان في العرب كهنة... فمنهم من كان يزعم أنَّ له تابعاً من الجنّ ورِئِيّاً يلقي إليه الأخبار، ومنهم من كان يزعم أنّه يعرف الأمور بمقدّمات وأسباب يستدلّ بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا يخصونه باسم العرّاف، كالذي يدّعي معرفة الشيء المسروق ومكان الضّالة ونحوها..»[[16]](#footnote-16).

وبعد التعرّف على مصادر المتنبّئين، فإنّ الأسئلة التي تواجهنا هي:

أولاً: هل أنّ هذه الطرق تُعتبر مصادر سليمة وموثوقة للمعرفة والاطلاع على المغيّبات؟

ثانياً: هل يجوز لهؤلاء أن يتنبّؤا ويتحدّثوا بما يزعمون أنّهم عارفون ومطّلعون عليه؟

ثالثاً: هل يجوز لنا تصديقهم والرجوع إليهم وترتيب الآثار على أقوالهم؟

الإلهام والإيحاء

أمّا الطريق الأول: وهو الإلهام، فلا يمكن الوثوق به والاعتماد عليه في استطلاع الغيبيّات، لأنّ الشخص الذي يدّعي الإلهام ورؤية صور معيّنة حتى لو كان موثوقاً وصُدِّق فيما يزعم أنّه يراه أو ينقدح في ذهنه أو يلمع في مخيلته من صور، إلاّ أنّه ليس ثمة ما يؤكد واقعية هذه الصور، بمعنى مطابقتها للواقع، ومن المحتمل جداً أنّها مجرد انفعالات نفسيّة وتهيؤات خاصة، وفي أحسن الأحوال، فإنّها تجربة شخصية وليس لنا أن نتوثّق من صدقيّتها، وهي ليست أحسن حالاً مما يراه الصوفي مثلاً، والذي لا يعدو كونه تجربة شخصية، ليس بالإمكان التوثّق من صدقيتها، إلاّ بأن نرى ما يراه، ما يعني أنّ هذه التنبؤات ليست حجّة شرعاً.

وأنّى لنا أن نصدّق هؤلاء ونحن نرى بأمِّ العين أنّه لا مصداقية لإخباراتهم، بل الواقع يكذّبها في كثير من الأحيان، فما أكثر الأشياء والحوادث التي يتنبأون بوقوعها ثم لا تقع! بل يحدث العكس أحياناً، وإذا صدقوا في بعض الإخبارات فلربما حصل ذلك اتفاقاً، أو عن قراءة تحليلية لمسار الأحداث والوقائع، كما يحصل في بعض الإخبارات ذات الطابع السياسي أو الأمني، حيث إنّ كلّ متابع للأحداث يستطيع التنبؤ بمسار الأحداث ومآلاتها، فعندما يطلّ علينا بعض المتنبئين ويخبرنا أنّ ثمّة رئيساً عربيــاً ـ على سبيل المثال ـ سوف يموت في العام القادم، فلا يكشف إخباره هذا عن امتلاكه علم الغيب وأنّه يُوحى إليه أو يُلقى في روعه، لأنّ كلّ واحد منّا على معرفة بأنّ معظم هؤلاء الرؤساء والملوك قد بلغوا سنّ الشيخوخة، وأنّ بعضهم يعاني من أمراضٍ مميتة، وبالتالي نستطيع التكهّن بموت أحدهم، فهل يكشف ذلك عن امتلاكنا علم الغيب؟!

ولهذا كلّه نستطيع القول: إنّ دعاوى الإلهام والإيحاء هي دعاوى فارغة ولا دليل على صدقيّتها، ولا يمكن التعويل عليها ولا تصديق أصحابها، فقد ورد في الحديث: قلت لأبي عبد اللهQ: إنّ عندنا بالجزيرة رجلاً ربما أخبر من يأتيه يسـأله عـن الشـيء يُسرق أو شبـه ذلك، فنسأله؟ قــال: قال رسول الله P: «مَنْ مشى إلى ساحر أو كاهن أو كذّاب يصدّقه فيما يقول فقد كفـر بما أنزل على محمدP»[[17]](#footnote-17).

فراسة العين

وأمّا الطريــق الثاني، وهو الاعتمـاد علـى فراسـة العـين، فهــو ـ كسابقه ـ طريق ظنّي ولا حجّية له شرعاً، ولا سيّما إذا أُريد الاستناد إليه في اتهام الآخرين أو التعرّف على المتهم، أو ترتيب سائر الآثار الشرعية مما يتصل بالنسب أو غيره، وقد كان في الجاهلية أناس يُعرفون بالقافة يَنْسِبُون الأولاد إلى آبائهم، استناداً إلى التشابه الجسدي بين الطرفين، وقد رفض التشريع الإسلامي في مدرسة أهل البيتR الاعتماد على «القيافة» في إثبات النسب أو نفيه، لأنّ القائف يعتمد على قرائن ظنّية لا ترقى إلى مستوى اليقين والاطمئنان.

ومن الغريب حقّاً أنّ بعض المتنبّئين لا ينتظر إلى أن يلتقي بالأشخاص ليتنبّأ لهم، وإنّما يكتفي بسماع أصواتهم ولو عبر جهاز التلفون، وما أن يذكر المتّصل اسمه حتى يشرع المتنبّىء بالحديث عن مستقبل هذا المتصل وعن أحواله الخاصة وعما ينتظره أو ينتظر أبناءه من مصاعبَ وتحدّيات، وما سيقدم عليه من زواج أو سفر أو مرض أو فرح، إلى غير ذلك من المغيّبات التي لا يعلمها إلاّ الله خالق الإنسان والعالم بسرّه وعلانيته، ولم يعهد حتى عن الأنبياء أنّهم أخبروا عنها، إلاّ في ظروف استثنائية خاصة وعلى سبيل الإعجاز، كما حدث مع عيسى المسيحQ، حيث كانت إحدى آياته ومعجزاته إخبار بني إسرائيل بما يأكلون، وما يدّخرون في بيوتهم، كما نصّت على ذلك الآية الشريفة: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللّهِ وَأُبْرِئُ الأكْمَهَ والأَبْرَصَ وَأُحْيِـي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[آل عمران : 49]، وهؤلاء المتنبّئون لا يزعمون أنّهم أنبياء يوحى إليهم ويطلعهم الله على المغيّبات، وعليه فما يتحدّث به هؤلاء لا يخلو إمّا أن يكون شعوذات ودجل أو مجرّد تهيّؤات نفسية لا تمتّ إلى الواقع بصلة، وعلى التقديرين لا يجوز التعويل على مزاعمهم و تصديقهم أو الترويج لهم بأي شكلٍ من الأشكال.

التواصل مع الجن (الكهانة)

وأما الطريق الثالث، وهو التنبّؤات أو الإخبارات التي يزعم أصحابها أنّهم استقوها من الجنّ، فإننا نتوقّف عندها بشيء من التفصيل لنسجّل بعض النقاط والملاحظات:

الجنّ حقيقة قرآنية

أولاً: إنّ الجنّ حقيقة قرآنية تحدّثت عنه العديد من الآيات الكريمة، وسُمّيت سورة كاملة في القرآن باسم «الجن»، ولهذا آمنّا به، مع أنّنا لم نره ولم نحتكّ به، وإذا كان العلم لم يستطِع إلى الآن اكتشاف هذا المخلوق، فهذا لا يبرّر نفي وجوده، فإنّ النفي يحتاج إلى دليل واضح وحاسم، وهو مفقود، وكمْ هي الأشياء التي لم يتسنَّ للعلم والعلماء اكتشافها أو معرفة حقيقتها وأسرارها، فهل يجوز في منطق العقل والعلم إنكارها؟!

هل يمكن التواصل مع الجنّ؟

ثانياً: إنّ فرصة التواصل الثابتة قرآنياً فيما بين الإنس والجنّ هي الوسوسة التي يمارسها الجنّ تجاه الإنس، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ﴾[الأنعام: 128]، إلاّ أنّ هذه الوسوسة لا تصل حدّاً يُفْقِدُ الإنسان إرادته وحرّيته أمام وساوس الجنّ وإغراءاته، قال تعالى: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلاَ تَلُومُونِي﴾[إبراهيم: 22]، أمّا قضية التواصل مع الجنّ والمخالطة معه فيما عدا الوساوس الشيطانية، فليس واضحاً أنها متاحة للناس بشكلٍ طبيعي، وإنما ثبت ذلك في حالات خاصة واستثنائية، كما حصل مع النبي سليمانQ حيث سَخَّر الله له الجنّ ليعملوا بين يديه وفي خدمته، كما سخّر له الطير والريح وألان له الحديد[[18]](#footnote-18). وأما النبي محمدP فلم يرد في القرآن الكريم ما يشير إلى أنّه تواصل مع الجن، فإنّ ما جاء في القرآن هو أنّ الله سبحانه أخبر نبيّهP بأنّ نفراً من الجنّ قد استمعوا إلى حديثه P ونقلوا ذلك إلى قومهم، من دون أن يرد في الآيات أية إشارة إلى أنّهP رآهم أو تحدّث إليهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أنّه اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً﴾[الجن: 1][[19]](#footnote-19).

وتشير بعض الروايات إلى وجود حاجب بين الإنس والجن، ففي الحديث القدسي المروي عن أمير المؤمنينQ: «..وأجعلُ بين الجن وبين خلقي حجاباً، ولا يرى خلقي الجن ولا يؤانسهم ولا يخالطونهم»[[20]](#footnote-20).

وفي ضوء ذلك فإنّنا نرفض حكاية تلبّس الجنّ بالإنس، ودخوله في جسمه وسيطرته على حواسه، فهذا فضلاً عن أنّه لا دليل عليه، فإنّه ينافي قوله: ﴿وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ﴾[إبراهيم: 22]، وما يُنقل من قصصٍ عن تلبّس الجنّ ببعض الناس، بحيث أنّه ينطق على لسانهم، ويدفعهم إلى القيام بتصرّفات غريبة أو غير معهودة بالنسبة إليهم لا بدّ من التدقيق فيها، فربما كانت حالات مرضيّة، ما يستدعي معها الرجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص في هذا المجال، وبالرجوع إليهم نجد أنّهم يذكرون لهذه الحالات تفسيرات علميّة، ويصفون لها علاجات خاصة تساعد على الخروج منها.

ولهذا فإنّنا نستغرب ما صدر من بعض الفقهاء من فتاوى حول مشروعية الزواج بالجنّ، وعن وجوب الغسل على الأنسيّ إذا خالط جنّية، وعن حكم الأكل من ذبائحهم إلى غير ذلك من الفتاوى المنشورة في كتب الفقه، والتي طرحها الفقهاء ودوّنوها انسياقاً منهم مع ما هو الشائع في زمانهم من إمكانية التواصل مع الجنّ والتزاوج منهم، مع أنّ هذا فيما يبدو من الخرافات والخيالات التي لا واقع لها، وقد دافع بعضهم عن الفقهاء، معتبراً أنّهم إنّما بحثوا ذلك لا من موقع إيمانهم بواقعية ذلك، بل طرحوها كتمارين فقهية جرياً على سنّتهم في افتراض الحالات والوقائع التي يُترقّب وقوعها أو يمكن أن تقع[[21]](#footnote-21)، ولكن هذا التوجيه لا تساعد عليه كلمات الفقهاء أنفسهم، فإنّها ظاهرة في أنّهم يتكلّمون عن وقائع وليس مجرّد مسائل افتراضية وتمارين فقهية[[22]](#footnote-22).

هذا ولكن البعض يحكي عن تجارب شخصية في التواصل مع الجنّ، قال الفخر الرازي: «إنّ أصحاب الصنعة وأرباب التجربة شاهدوا أنّ الاتصال بالأرواح الأرضية كالجنّ، يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقيّ والدخن والتجريد»[[23]](#footnote-23) وهذا ما نسمعه من بعض الناس في زماننا، والله العالم.

تحضير الجنّ وتسخيره

ثالثاً: بناءً على إمكانية التواصل مع الجنّ، فهل يجوز تحضيرهم أو تسخيرهم بهدف الاستطلاع عن بعض الغائبات منهم؟

الظاهر حرمة تسخير الجنّ إذا انطبقت عليه العناوين التالية:

إذا كان المسخِّر عُرضةً للضرر سواءً الجسدي أو النفسي، كالجنون أو نحوه.

أن يكون المسخَّر من مؤمني الجنّ، فإنّ تسخيره يشكّل إيذاءً وظلماً له فيحرم، أمّا تسخير الكفّار من الجنّ أو الإنس فلا دليل على حرمته.

أن يتمّ الاستعانة بوسائل ومقدّمات محرّمة في عملية التسخير.

ومع انتفاء العناوين الثلاثة فلا موجب للحرمة[[24]](#footnote-24).

الجنّ لا يعلمون الغيب

رابعاً: لو سلّمنا بإمكانية التواصل مع الجن، فهل يستدعي ذلك التسليم بأنّ لديهم مقدرات استثنائية تمكّنهم من معرفة المغيّبات؟ الظاهر أنّ هذا غير ثابت أيضاً ولا دليل عليه، لأنّ الجن وإن كان كائناً غير مرئيّ، ما قد يمكّنه من سهولة التحرّك بالقياس إلى الإنسان، لكنّه يبقى محدود القدرة، كما يظهر من قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾[الرحمن: 33]، وهكذا فإنّ دعوى أنّه يعلم بالمغيّبات ولا سيما ما سوف يحدث في قادم الأيام لا شاهد عليها، بل إنّ الشاهد على العكس من ذلك تماماً، كما يستفاد من قوله تعالى بشأن موت سليمان Q: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾[سبأ : 14]، حيث دلّت الآية الشريفة على أنّ سليمانQ قد وافاه الأجل وهو متّكىء على عصاه وبقي مدّة على هذه الحال، ولم يكتشف الجن والإنس موته بل كانوا يحسبونه حياً إلى أن نخرت دابة الأرض، وهي الحشرة، عصاه، فانكسرت وسقط سليمان، عندها علم الجميع بموته وتبيّن أنّ الجنّ لا يعلمون الغيب، وإلاّ لما لبثوا في أسر سليمان وخدمته[[25]](#footnote-25).

الجان: منهم الصادق ومنهم الكاذب

خامساً: ثمّ ـ وبناءً على إمكانية التواصل مع الجن ـ كيف لنا أن نصدّق الجان فيما يلقيه إلينا من إخبارات مع أن فيهم الكاذب كما الصادق؟! قال تعالى حكاية عن لسان طائفة من الجنّ: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللَّهِ كَذِباً﴾[الجن: 5]، لكنّهم فوجئوا بأنّ قادتهم ورؤساءهم يفترون على الله الكذب ويصفونه بما لا يليق بعظمته، وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَداً... وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُوْلَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَداً\*وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَباً﴾[الجن: 11ـ14ـ15]، وعليه فأنّى لنا الوثوق بهذا المصدر في استطلاع المغيّبات والتنبّؤ بالأحداث؟!

مَنْعُ الجن من استراق السمع

سادساً: يُستفاد من بعض الآيات القرآنية أنّ المصدر الذي كان الجنّ يعتمد عليه في التعرّف على المغيّبات هو محاولة استراق السمع من الملأ الأعلى، وقد سدَّ الله عليهم هذا الباب ومنعهم من الوصول إلى السماء لاستراق السمع، لأنّها محصّنة بالحَفَظَة والحرس الشديد والشُّهُب الحارقة، قال تعالى: ﴿َأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاء فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَساً شَدِيداً وَشُهُباً \* وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَاباً رَّصَداً﴾[الجن:8ـ9]، إنَّ هاتين الآيتين تسجّلان اعترافاً صريحاً صادراً من الجنّ أنفسهم ومفاده: أنّهم لا يعلمون الغيب، وممنوعون من استراق السمع من الملأ الأعلى، مما كان يشكّل مصدراً لهم لاستطلاع المغيّبات.

تحضير الأرواح

إنّ ما ذكرناه حول تسخير الجن يأتي في معظمه في قضية تسخير الأرواح وتحضيرها، وبيان ذلك: إنّ البعض يزعم أنّ بإمكانه تسخير الأرواح واستعلام المغيبات من خلال استنطاقها، والتسخيرـ كما يزعمون ـ يتمّ: إما عن طريق التقمص بجسد أحد الأشخاص، لاسيما الأطفال حيث تحلُّ الروح فيه وتتكلم على لسانه، وإمّا عن طريق الفنجان، حيث تؤخذ ورقة ويكتب عليها الحروف الأبجدية، ويوضع إلى جنبها فنجان مقلوب، ثم يتلو المسخِّر للروح بضع كلمات فيرتفع الفنجان ويتحرك، وهنا يبدأ التواصل مع الروح حيث تُسأل بعض الأسئلة وتجيب من خلال حركة الفنجان وانتقاله بنفسه من حرف إلى حرف آخر من تلك الحروف الموجودة على الورقة بما يشكّل جملة مفيدة.

وموقفنا من تحضير الأرواح يمكن تلخيصه بالنقاط التالية:

أولاً: إنّ تسخيـر الأرواح أمر غيـر ثابـت، لأنّ الـروح بعد انفصالها عن الجسد بسبب الموت تدخل في عالم البرزخ، قال تعالى: ﴿وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[المؤمنون : 100]، والبرزخ ـ وهو الحاجز بين شيئين ـ عالم مختلف عن عالم الدنيا في قوانينه وأحكامه، والروح هناك ـ كما تتضمّن بعض الروايات ـ إما منعّمة أو معذّبة، ففي الحديث عن أمير المؤمنينQ في تفسير البرزخ «وهو أمر بين أمرين، وهو الثواب والعقاب بين الدنيا والآخرة»[[26]](#footnote-26)، وعن علي بن الحسينQ: «والله إن القبر لروضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار»[[27]](#footnote-27)، وعليه، فمن ذا الذي يستطيع أن ينتزع روح المؤمن من النعيم التي هي فيه ويسخّرها لتجيب على أسئلة مع ما في ذلك من الإيذاء لها والتضييق عليها؟! ومن ذا الذي يستطيع إخراج روح الكافر والمنافق من العذاب التي هي فيه؟!

ومما يشهد ويؤيد ما ذكرناه من أنه لا مجال للتواصل بين أهل الدنيا وأهل البرزخ: ما جاء في الحديث عن أمير المؤمنينQ عندما مرّ بعد رجوعه من صفين على قبور بظهر الكوفة فوقف وخاطب أهل تلك القبور: «يا أهل الديار الموحشة والمحال المقفرة والقبور المظلمة، يا أهل التربة يا أهل الوحدة يا أهل الوحشة أنتم لنا فرط سابق ونحن لكم تبع لاحق، أما الدور فقد سُكنت وأما الأزواح فقد نُكِحت وأمّا الأموال فقد قُسِّمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟ ثم التفت إلى أصحابه فقال: أما لو أُذن لهم في الكلام لأخبروكم أنَّ خير الزاد التقوى»[[28]](#footnote-28)، فهم إذن ـ كما يُستفاد من عبارة: «لو أُذن..»ـ ممنوعون من الكلام محجوبون عن أهل الدنيا.

ثانياً: إنّ الروح ـ على فرض أنه يمكن التواصل معها ـ لا تعلم الغيب، لأنّ الغيب لا يعلمه إلاّ الله، كما دلت على ذلك الآيات القرآنية المتقدمة، كما أنّ ثمة سبباً آخر يمنع الأرواح من الاطلاع على أحداث عالم الدنيا وهو أنهم محجوزون عن هذا العالم في حياتهم البرزخية، كما يستفاد ذلك من الروايات التي تتحدث عن أنه إذا انتقلت روح جديدة إلى عالم البرزخ فتأخذ الأرواح هناك في مساءلتها: «ما فعل فلان؟ وما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: تَرَكْتُه حياً ارتجوه، وإن قالت لهم: قد هلك، قالوا: قد هوى هوى»[[29]](#footnote-29)، وفي رواية أخرى عن أبي عبد اللهQ: «إذا مات الميت اجتمعوا ـ أي الأرواح ـ عنده يسألونه عمّن مضى وعمّن بقي، فإن كان مات ولم يَرد عليهم قالوا: قد هوى هوى، ويقول بعضهم لبعض: دعوه حتى يسكن ممّا مرّ عليه من الموت»[[30]](#footnote-30)، فلو كانت الأرواح تعلم ما يجري في عالم الدنيا من أحداث لما سألت عنها الروح القادمة إليها.

ثالثاً: وقد تسأل: إذا كان التواصل مع الأرواح ليس ثابتاً، والأرواح لا تعلم الغيب، فكيف نفسِّر ما يحدث خارجاً مما نراه بأعيننا، حيث يتم تحضير الروح بواسطة الفنجان أو التقمص في جسد الأطفال والنطق على لسانها؟ وإذا لم تكن الروح هي التي حضرت، فمن الذي أنطق هذا الطفل بأمور لا يعلم عنها شيئاً ولا يفقهها؟! ومن الذي حرّك الفنجان على الحروف بما يعطينا معانٍ متناغمة مع الأسئلة التي تطرح على الروح؟!

والجواب: إنّ هذا الأمر يحتاج فعلاً إلى تفسير، لكن تفسيره لا ينحصر بأن تكون الروح هي المستحضَرَة وهي التي تجيب على أسئلتنا، بل هناك تفسيرات أخرى لذلك، نذكر اثنين منها:

التفسير الأول: هناك احتمال بأنّ ما يجري برمّته ليس واقعياً، وإنما هو محض تخيلات وتلاعب بأبصار الحضور، كما هي طريقة السحرة في أساليبهم التي تعتمد الخفة والدقة ما يوهم الناظر بوقوع أحداث معينة، مع أنه لا أساس لها من الصحة، كما فعل سحرة بني إسرائيل عندما ألقوا حبالهم وعصيّهم وسحروا أعين الناس واسترهبوهم حتى خُيِّل إلى موسىQ نفسه من سحرهم أنّها أفاعٍ تسعى، طبقاً لما نصَّ عليه الذكر الحكيم[[31]](#footnote-31).

التفسير الثاني: إنّه على فرض التسليم بواقعية ما يجري من حركة الفنجان ونحوها، لكننا نسأل: من الذي يستطيع أن يضمن أنّ الروح المستحضرة والمسخَّرة هي روح بشرية؟! أليس من الوارد أن يكون ذلك من مصائد الشيطان ومكائده بهدف إضلال الإنسان وإرباك حياته، وهي المهمة التي نذر نفسه ـ وهو الوسواس الخنّاس ـ لأجلها، وطلب من الله إنظاره وإمهاله إلى يوم الدين بغية إنجازها، متعمّداً أن يتوسّل كلّ الأساليب في سبيل ذلك، ﴿ قَالَ أَنظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ \* قَالَ إِنَّكَ مِنَ المُنظَرِينَ \* قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ \* ثُمَّ لآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلاَ تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾[الأعراف: 14ـ17].

وهذا لا يتنافى مع ما تقدّم سابقاً من أنّه لا فرصة للتواصل مع الجن، لأنّ ما نفيناه إنّما هو التواصل الطبيعي الواضح وما يحدث هنا ليس كذلك، فإن الشخص الذي يزعم أنه يُسخِّر الأرواح إنما يقوم بعمل معين بهدف التواصل مع الأرواح ـ لا الجن ـ متوهماً إمكانية ذلك، فيتدخّل الشيطان من حيث لا يدري على الخط ويجيب على أسئلته بهدف إضلاله أو إرباك حياته، كما قلنا.

رابعاً: ما هو حكم الشرع في هذا العمل المسمّى تسخير الأرواح، وهل هو جائز أم محرم؟

يظهر من بعض الفقهاء أنّ التسخير المذكور إنما يحرم إذا انطبق عليه عنوان محرّم، كما لو كان فيه إيذاء وإضرار بالنفس المسخَّرة، أو إذا انطبق عليه عنوان السحر، لأنّ ممارسة السحر محرمة شرعاً.

سُئل السيّد الخوئي: هل يجوز شرعاً تسخير الأرواح للاستخبار منهم عن أحوالهم وأحوال البرزخ وغير ذلك؟

فأجاب: الأظهر تحريم إحضار من يضرّه الإحضار من النفوس المحترمة دون غيرها.

وفي سؤال آخر وُجِّه إليه: هل يحرم تحضير الأرواح بالفنجان وبغير الفنجان؟

أجاب: نعم، يحرم إذا كان يعد من فن السحر[[32]](#footnote-32).

وتعليقاً على هذه الفتاوى نقـول: إنـه بناءً علـى عـدم واقعية تسخير الأرواح ـ كما رجّحنا ـ فلا موجب للتحريم بعنوان الإضرار بالنفوس المسخَّرة، أجل يبقى وجه التحريم قائماً إذا عدّ التسخير من السحر وانطبق عليه عنوانه.

التنجيم والمنجّمون

الطريق الرابع: هو الاعتماد على التنجيم، والمنجّمون ـ كما يزعمون ـ يستندون في إخباراتهم وتوقّعاتهم على النظر في النجوم والأفلاك، لاعتقادهم أنّ لها تأثيراً على مصير الإنسان، كما أسلفنا، والسؤال: هل أنّ للنجوم تأثيراً على الإنسان وعلى الحوادث في هذا العالم؟ وهل يمكن معرفة ما سيحصل للناس من خلال النظر في النجوم؟ وما قيمة الإخبارات الفلكية؟ وهل يجوز تصديق المنجّم والتردّد عليه؟

علم الفلك والتأثير الصحيح

هناك نوع من التأثير الطبيعي للنجوم لا شك فيه، وهو تأثير يرتكز على أسس وقواعد مفهومة تحكم النظام الكوني، فحركة الشمس ووضعيتها ومنازل القمر، وكذا سائر الكواكب تؤثّر في الفصول الأربعة، وفي المدّ والجزر، وتؤثّر في حياة الإنسان والحيوان والنبات.

ولذا، فالنظر في الكواكب لمعرفة تأثيراتها التكوينية أمر جائز، بل مطلوب ولا مشكلة فيه، وهكذا الحال في معرفة الأوضاع الفلكية واقتران بعض الأفلاك ببعض، وحركة المنظومة الشمسية وما يتصل بحركة الشمس وكسوفها والقمر وخسوفه، وغير ذلك، ممّا يدخل تحت علم الهيئة أو علم الفلك، فهذا كلّه مشروع، وقد أقرّه الإسلام وشجّع عليه، قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾[الرحمن : 5] ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾[يس : 39]، وقد برع الكثير من علماء المسلمين في هذا العلم، وكانت لهم إسهامات هامة في هذا المجال، ولذا لا مانع إطلاقاً من أن نتعرّف على منازل القمر وأوضاعه، وأن نخبر عنها، شريطة أن نملك علماً يؤهّلنا للحديث عن ذلك، أو خبرة تسمح بذلك، كما قد يحصل مع بعض المزراعين والفلاحين ولا سيما المسنين منهم ممن أكسبتهم تجارب الحياة الكثير من الخبرة والمعرفة الفلكية، خاصة فيما يرتبط بحالة الطقس العامة، أو نحو ذلك[[33]](#footnote-33).

ولا بدّ أن تكون الإخبارات الفلكية متناسبة مع المعطيات التي يمتلكها الفلكي، فإذا كانت المعطيات التي بحوزته لا تخوّله الإخبار اليقيني، فعليه أن يخبر على سبيل الظن والتوقّع، كما هي الحال في توقّعات حالة الطقس، والمعهود لدى المراصد الفلكية في العالم التزام أعلى درجات الدقّة والمصداقية في تقاريرهم وآرائهم.

التنجيم المرفوض

ولكنْ ثمة نوعٌ آخر من اعتقاد التأثير مرفوض ولا يمكننا القبول به، وهو الاعتقاد بأنّ للنجوم تأثيراً في حياة الإنسان لجهة مرضه، وصحّته، وفقره، وغناه، وسعادته، وشقائه، والمنجّم هنا ينظر في الطالع ويتنبأ للشخص على هذا الأساس.

إنّ هذا النوع من التأثير باطل ولا دليل عليه، سواء ابتنى على الاعتقاد، بأنّ للنجوم نفوساً وأنّها فاعلة بالاختيار، أو أنّه ليس له نفوس وأنّها فاعلة بالإكراه والقسر، وربما وصل الاعتقاد بمؤثرية النجوم في حوادث العالم وحياة الإنسان إلى حدّ الكفر بالله سبحانه، كما هو معتقد بعض الناس، بأنّ النجوم هي العلّة التامّة في حدوث الحوادث، فهذا الاعتقاد يمثّل إنكاراً للصانع، وقد ورد في الحديث الشريف: «المنجّم كالكاهن والكاهن كالساحر والساحر كالكافر والكافر في النار»[[34]](#footnote-34).

أجل، لو كان المنجّم يعتقد أنّ النجوم إنّما تؤثّر في ذلك من خلال ما أودعه الله فيها من سرّ التأثير، دون أن تستقلّ بذلك، فهذا لا يمثّل كفراً، ولكنّه اعتقاد باطل، لعدم الدليل على ذلك التأثير لا من العلم ولا من الدين، بل إنّ بعض الروايات تبطله، كما في الحديث: «لما أراد أمير المؤمنينQ السير إلى النهروان أتاه منجم فقال له: يا أمير المؤمنين لا تسرْ في هذه الساعة وسِرْ في ثلاث ساعات يمضين من النهار، فقالQ: ولما ذاك؟ قال: لأنّك إن سرت في هذه الساعة أصابك وأصاب أصحابك أذى وضرٌّ شديد، وإنْ سرت في الساعة التي أمرتك ظفرت وظهرت وأصبت كلّ ما طلبت، فقال له أمير المؤمنينQ: تدري ما في بطن هذه الدابة أذكر أم أنثى؟ قال: إن حسبت علمت، قــال له أمير المؤمنينQ: مَنْ صدّقك على هذا القول كذّب بالقرآن: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَداً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[لقمان : 34]، ما كان محمدP يدّعي ما ادّعيت! أتزعم أنك تهدي إلى الساعة التي من سار فيها حاق به الضرّ؟! من صدّقك بهذا استغنى بقولك عن الاستعانة بالله عز وجل في ذلك الوجه وأُحوجَ إلى الرغبة إليك في دفع المكروه عنه، وينبغي له أن يوليك الحمد دون ربه عز وجل، فمن آمن لك بهذا فقد اتخذك من دون الله نداً وضداً، ثم قالQ: اللهم لا طير إلاّ طيرك، ولا ضير إلاّ ضيرك، ولا خير إلاّ خيرك، ولا إله غيرك، ثم التفت إلى المنجم فقال: بل نكذبك ونخالفك ونسير في الساعة التي نهيت عنها»[[35]](#footnote-35).

ولمزيد من التبصّر والتوسّع حول الموقف الإسلامي من التنجيم، يمكن مراجعة المصادر الفقهية المختصّة، فقد أشبعت هذه القضية بحثاً وتحقيقاً.

قيمة التنبؤات الفلكية

فـي ضوء ما تقـدّم يتبيّـن أنّ إخبارات المنجّمين لا قيمة لها، ولا يجوز تصديق المنجّم فيما يقول، ولا ترتيب الأثر على كلامه في إدانة هذا أو اتهام فلان، ففي الحديث عنهP: «من صدّق كاهناً أو منجماً فهو كافر بما أنزل على محمدP»[[36]](#footnote-36)، وقد اعتمد التشريع الإسلامي طرقاً خاصة للتحاكم، والتعرّف على الغرماء، سواء السارق أو المتّهم أو غيرهما، قالP ـ فيما ورد عنه في الخبر الصحيح ـ «إنّما أقضي بينكم بالبيّنات والأيمان»[[37]](#footnote-37).

ولهذا، فإنّ العقلاء ولا سيّما المؤمنين مدعوون إلى اجتناب المنجّمين وعدم الترويج لهم حتى لو صَدَقوا في تنبّؤٍ هنا أو توقّعٍ هناك، لأنّ القضية قضية منهج، فالتنجيم ليس منهجاً صحيحاً للبناء المعرفي والثقافي، ولا طريقاً سديداً للكشف، أو التعرّف على المغيّبات والحقائق.

قراءة الكفّ والفنجان

أمّا الطريق الخامس لاستطلاع المغيّبات من خلال قراءة الكف أو الفنجان أو «ورق الشدّة»، فهو أيضاً ممّا لا يمكن شرعاً التعويل عليه، بل إنّ هذه الطرق المتّبعة في الكشف عن الواقع والمغيّبات لا نصيب لها من الصحّة، ولا تعتمد على منطق ولا عقل، إذ كيف نتعقّل أن يكون وجود بعض الرسوم والأشكال في فنجان القهوة ـ مثلاً ـ كاشفاً عن مصير الشخص ودالاًّ على ما سيواجهه في قادم الأيام؟! وكذا الحال في الخطوط الموجودة على بطن الكفّ، فإنّها لا تحدّد مصير الإنسان ولا دخل لها في سعادته أو شقائه، بل إنّ ذلك ـ أعني السعادة والشقاء ـ هي رهن عمله وفعاله، وطوع إرادته واختياره، والأغرب من ذلك كلّه أن يلجأ الإنسان إلى معرفة مستقبله من خلال خلط أوراق صنعها بيديه، ثم يُخرج بعضها ويُصدر الأحكام على ضوء ذلك!

إنّ اللجوء إلى هذه الأساليب يمثل استهانة بالعقل، واستخفافاً بالعلم، وتجاوزاً لتعاليم الأنبياء والرسل.

استطلاع الغيب بواسطة القرآن

وثمة طريق سادس يستخدمه البعض في كشف الغائبات والتنبؤ بالأحداث، من خلال الرجوع إلى القرآن الكريم وفتحه على نيّة شخص معين والاستيحاء من مضمون الآيات التي تظهر بعد فتح القرآن بما يرتبط بمصير هذا الشخص ومستقبله، وما سيواجهه من أحداث مفرحة أو محزنة، وهذا الأمر مختلف عن الاستخارة بالقرآن في مضمونه وهدفه.

وهذا الطريق ليس طريقاً شرعياً في التعرّف على المغيّبات، ولم يُعهد في الأزمنة السابقة، ولا أذن به النبي P ولا الأئمة من أهل البيتR، ولا عرفه أصحابهم والتابعون لهم، مع أنّه لو كان مشروعاً لكانوا أولى الناس في الأخذ به، وفي الحقيقة، فإنّ استخدام القرآن الكريم في التنبّؤ بالمغيّبات وقراءة المستقبل، يُعدّ توهيناً للقرآن وتحريفاً لمقاصده، لأنّ القرآن الكريم كتاب هداية، وليس كتاباً للتنبؤ بحوادث المستقبل، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[البقرة: 2].

المفردة الثانية  
نحوسة الأيام وسعودتها

في طقوس الشعوب وأدبياتها الشعائرية يلاحظ أنَّ هناك ظواهر مشتركة يتلاقى عليها معظم الناس، من ذلك قضيتا النُّحوسة والسعادة، فتوصف بعض الأيام، بأنّها أيّام نحس، وهو ما يفرض تجاهها جملة من الممارسات الشعائرية ذات الطابع الوقائي الهادف إلى دفع غائلة النحوسة، وتوصف أيام أخرى بأنها أيام سعد، ويتم التعامل معها بطريقة احتفالية تحمل الكثير من مظاهر الفرح والمرح.

حقيقة النحوسة

والنحوسة ـ كما السعودة ـ في العمق ليست منبعثة عن خصوصية في ذات الزمان تفرض هذا الصفة أو تلك، وإنما هي تعبير عن تفاعل بين عناصر ثلاثة، وهي: الإنسان، الزمان، الحدث، فإن كان التفاعل إيجابياً، فاليوم يوم سعد، وإن كان سلبيّاً فاليوم، يوم نحس، فعندما يضفي الناس على يوم ما صفة النحوسة مثلاً، فبسبب كونه ظرفاً لوقوع حدث كارثي مأساوي، ومأساوية الحدث هذه تحفر في الذاكرة الجَمعيّة جرحاً بليغاً وتخلق أو توجد اقتراناً أكيداً وارتباطاً عميقاً بين الحدث والزمن، بحيث يتداعى الحدث إلى الذهن فارضاً نفسه كلما دارت دورة الزمان وحلّ اليوم المعهود، وليس بالضرورة أن يحدّ مرور الزمان من التفاعل مع الحدث، بل ربما رسّخه وأضفى عليه طابعاً أسطورياً، ولا سيّما إذا كانت عناصر القضية المأساوية تمتلك قدسيّة لدى الرأي العام، وهكذا قد يبلغ التفاعل السلبي مع «الأيام المنحوسة» ذروته عندما تُنبذ هذه الأيام، ويتمّ التعامل معها بطريقة تشاؤميّة سوداويّة، فيحاول الإنسان التهرّب أو الاختباء منها، ويتحرّز عن القيام فيها بأيِّ نشاط اقتصادي أو تجاري أو اجتماعي، فيتجنّب ـ على سبيل المثال ـ الزواج والسفر والتجارة والسعي في حوائجه المختلفة ونحوها من الأنشطة، مخافة أن تصيبه لعنة تلك الأيام.

وفي تراثنا الديني ما يعزّز فكرة النحوسة ويكرّسها ويمنحها «الشرعية» فكيف نفهم ذلك؟ وهل يمكن القبول بالفكرة؟ هذا ما نحاول دراسته بطريقة متأنّية تستهدي كتاب الله وسنة نبيه وتستلهم العقل الفطري الذي جعله الله دالاًّ عليه ومرجعاً في فهم نصوصه.

قيمة الزمن في التصوّر الإسلامي

في البدء لا بدّ أن نتعرّف على نظرة الإسلام إلى الزمن، وإلى قيمة الزمن في الرؤية الإسلامية، حيث يمكن تلخيص هذه النظرة بأنّ الزمن بكلِّ فصوله ومقاطعه، سنينه وشهوره، لياليه وأيامه، دقائقه وثوانيه هو وعاء وظرف لحركة الإنسان وكلّ الكائنات، ومؤثّر في نموّها وتطوّرها، في حياتها وموتهـا، فالنهـارـ كمقطع من مقاطع الزمان ـ ميدان للنشاط والعمل، والليل موئل للراحة والاسترخاء: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاساً وَالنَّوْمَ سُبَاتاً وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُوراً﴾[الفرقان : 47]، وهكذا فإنّ الزمن بكلّ مفاصله وفصوله وما يسهم فيه أو يرافقه من تغيّرات مناخيّة وبيئيّة هو من أهمّ العناصر المحرّكة للحياة، ولذا يعتبره القرآن آية من آيات الله عظيمة، وقد وقع مورداً للقَسَم الإلهي كما في قوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ \* إِنَّ الْإنسان لَفِي خُسْر﴾[العصر: 1ـ2]، والله تعالى عندما يقسم بشيء من مخلوقاته فلغرض التنبيه على عظيم فائدته، وهل أعظم من الزمان نعمة؟! ولكن السؤال كيف نَشْغَلُ هذا الزمان؟ وبِمَ نملأه؟ أبعمل الخير وطاعة الرحمن، أم بالشرّ واللهو واتّباع الشيطان؟

مسؤولية العمر

وإذا كان الزمن ـ كما قلنا ـ في طبيعته ووظيفته مجرد وعاء وظرف يختزن كلّ ما يُلقى فيه من أعمال الخير أو الشر، وكان في حقيقته عبارة عن آنات متشابهة ومتعاقبة، ولا فرق بين آنٍ وآن في ماهيته سوى أنّ أحدها يسبق الآخر، فإنّه لا تبقى ميزة لزمنٍ على آخر، ولا أفضليّة لساعة على أخرى، ولا معنى لزمنٍ رديء وآخر هنيء، بل الزمن كلّه خيرٌ ونعمة إذا أحسنّا استغلاله والإفادة منه، ولذا سوف يُسأل الإنسان يوم القيامة عن الزمن، وتحديداً عن عمره الممتدّ في عامود الزمن، فإنّ هذا العمر مسؤولية، كما أنّه فرصة لا تعوّض، ففي الحديث عن رسول اللهP: «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأل عن أربع: عن عمره فيما أفناه وعن شبابه فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه وعن حبّنا أهل البيت»[[38]](#footnote-38)، وفي رواية أخرى[[39]](#footnote-39) أنهP قال هذا الكلام تفسيراً وتعليقاً على قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ﴾[الصافات: 24].

لا يُعاب الزمان

وفي ضوء ما تقدّم من حديث عن حقيقة الزمان وطبيعته ووظيفته لا يغدو مفهوماً ولا مبرَّراً ما جرى عليه الناس من ذمّ الزمن ولعنه وسبّه، لأنّه إن كان الزمن وعاءً، فهو بمثابة اللوح أو الورق الذي يتلقّى ويتقبّل كلّ ما يكتبه أو يسجّله الإنسان في صفحاته، فهل يُعاب الورق أو يُلام؟ أَوَ يُعابُ شيء على ما لا دور له في صنعه؟! إنّ الذي ينبغي أن يُعاب ويُلام هو الذي أساء الاستفادة من نعمة الزمن، والذي ينبغي أن يُمدح هو الذي أحسن الاستفادة منها، وقد ورد في الحديث عن الإمام الصادقQ: «لا تسبّوا الرياح فإنّها مأمورة، ولا تسبّوا الجبال ولا الساعات ولا الأيام ولا الليالي فتأثموا وترجع عليكم»[[40]](#footnote-40).

وعلى المنوال نفسه وبنفس المعيار لا يبدو مبرَّراً ما شاع بين الناس من لعن الدنيا أو الحياة أو شتمهما، فالدنيا كما يصفها الحديث ليست سوى مطيّة للإنسان يصل بها إلى مبتغاه، ففي الخبر: «لا تسبّوا الدنيا، فنعم المطيّة الدنيا للمؤمن، عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشرّ، إنّه إذا قال العبد: لعن الله الدنيا، قالت الدنيا: لعن الله أعصانا لربّه»[[41]](#footnote-41).

أجل، ربما يكون التفسير الوحيد لما يفعله الإنسان من ذمّ الزمان والأيام والليالي هو محاولة التخفيف أو التهرّب من مسؤوليّته عمّا ارتكبه فيها من أخطاء، وإلقاء اللوم على الغير، ما يشعره بشيءٍ من الرّضى الداخليّ، مع أنّه في الحقيقة شعور كاذب ومخادع.

باتضاح ما ذكرناه يكون من الطبيعي ورود التساؤل عن كيفية المواءمة بين المفهوم المشار إليه حول حقيقة الزمن ورؤية الإسلام بشأنه، وبين ما ورد في النصوص من تأكيدٍ على فكرة بركة الأيام أو نحوستها؟

بركة الأيام ومعناها

وحاصل هذا التساؤل أو بالأحرى الإشكال: إنّ فكرة ظرفية أو وعائية الزمن للأحداث وتساوي أجزاءه وأبعاضه، وعدم تفاضلها فيما بينها، لا تتلاءم وفكرة نحوسة الأيام، وكذلك لا تتلاءم وفكرة بركة الأيـام أيضاً، مع أنّ كلتـا الفكرتين ـ أعني النحوسة والبركة ـ وردتا في القرآن الكريم، أمّا البركة فقد وردت كوصفٍ لليلة القدر، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ﴾[الدخان:3]، وهي الليلة ذاتها التي وصفها تعالى في موضع آخر بأنها ﴿خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾[القدر : 3]، فكيف تكون هذه الليلة خيراً من ألف شهر، وقد قلنا أنّه لا تفاضل بين أجزاء الزمان؟!

ويمكن أن يُجاب على ما ورد بشأن بركة بعض الأزمنة بإحدى إجابتين:

الإجابة الأولى: إنّ بركة هذه الليلة، أو أية ليلة أخرى، وسرّ تميّزها ليس ناشئاً عن خصوصيّة في طبيعتها أو تميّز في آناتها، وإنما مردّه إلى اقترانها بنزول البركات الإلهية، واحتفافها بالألطاف الروحية، من نزول الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كلّ أمر، ما جعلها سلاماً حتى مطلع الفجر، ومآل ذلك كلّه إلى «فضل العبادة والنسك فيها وغزارة ثوابها وقرب العناية الإلهية فيها من المتوجهين إلى ساحة العزة والكبرياء»[[42]](#footnote-42). إنّ البركة في الحقيقة ليست مستمدَّة من الليلة، ولا هي بركة الزمن، وإنّما هي بركة الله التي أنزلها على عباده في هذه الليلة، فبركة الليلة أو شرافتها هي من بركة وشرافة ما حلّ فيها من ألطاف.

الإجابة الثانية: إنّ الالتزام ببركة الزمن عموماً يعبّر عن تقدير الإسلام لقيمة الزمن، وأنّه نعمة إلهية امتنَّ الله بها علينا وعلى جميع الكائنات، ويمكننا الإفادة منه على صعيد التكامل الروحي والاجتماعي، فالزمن ـ مطلق الزمن ـ يمثّل نعمة لا تُضاهى، وبركة لا تحدّ ولا تعدّ ألطافها وفوائدها، وأمّا بعض الليالي ـ كليلة القدرـ أو الأيام ـ كيوم الجمعة ـ فهي تشتمل على لطف إضافيّ من ألطاف الله التي لا تحصى، ولهذا فالحديث عن بركة الأيام أو الليالي أو الساعات لا يثير مشكلة، وإنّما يعبّر عن ميزة إيجابية في الإسلام، وإنّما الذي يثير المشكلة ويحتاج إلى إجابة هو قضية النحوسة، فكيف يمكن أن نوائم بين قيمة الزمن المشار إليها، وبين ما ورد في المأثورات الدينية من حديث مسهب عن نحوسة الأيام؟

النحوسة في القرآن

ونبدأ بدراسة النصوص القرآنية الواردة في نحوسة بعض الأيام، حيث إنَّ لقائل أن يقول: إنَّ القرآن حسم المسألة وأقرّ بنحوسة بعض الأيام، فلا مجال للتشكيك في الفكرة أو إنكارها. يقول تعالى في شأن قوم عاد: ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ\*إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾[القمر:18ـ19].

وفـي آيـة أخـرى يقـول سبحانـه وهو يتحدّث عن نفس الحادثة: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾[فصلت : 16].

والآيتان تحكيان حدثاً بعينه وقصة واحدة، وتعبير إحداهما عما جرى من عذاب أنّه كان في «يوم نحس»، وتعبير الأخرى أنّه كان في «أيام نحسات» لا يعكس تناقضاً أو تنافياً بين الآيتين، لأنّ الرياح العاتية التي أرسلها الله على عاد استمرت سبع ليال وثمانية أيام، كما ورد في سورة الحاقة، واليوم الثامن كان يوم الحسم والهلاك التام، والآية الأولى التي تحدّثت عن «يوم نحس» ربما تشير إلى اليوم الأول الذي استمرّ في نحوسته ثمانية أيام، أو أنّها تشير إلى اليوم الأخير من تلك الأيام، بينما الآية الأخرى التي تحدّثت عن «أيام نحسات» تشير إلى مجموع الأيّام الثمانية المتعاقبة.

وفي كلّ الأحوال، فإنّه ومع أخْذ الرؤية الإسلامية المتقدّمة حول قيمة الزمن بعين الاعتبار، يتّضح أنّ النحوسة التي تشير إليها الآيتان ليست نحوسة نفس الزمن وذات اليوم، وإنما هي بلحاظ ما وقع في هذه الأيام من ريح صرصر عاتية، فالنحوسة ـ في الحقيقة ـ هي لـِمَا أصاب القوم من عذاب ونكد، ونسبتها إلى الأيام نسبة مجازية، بعلاقة الحال والمحل، وكثيراً ما يسمى الحال باسم المحل، أو العكس كما فيما نحن فيه.

ولكن يبقى السؤال ما المراد بكلمة «مستمرّ»؟ أليس فيها إشارة إلى تأبيد النحوسة في هذا اليوم بمعنى تكرّرها بمرور السنين والدهور؟

والجواب: إنّ كلمة مستمرّ إما أنّها صفة لليوم أو صفة لـ «نحس»، وعلى التقديرين، فليس ثمّة ما يدلّ على تأبيد النحوسة، أمّا إذا كانت صفَةً لليوم، كما هو الأرجح، فيكون المراد استمرارية شؤم هذا اليوم، أي نكده وضرره عليهم سبع ليال وثمانية أيام حتى أتى عليهم العذاب في اليوم الثامن، وأمّا إذا كانت صفة لـ «نحس» كما نقل عن قتادة، فيكون المراد أنّ العذاب استمرّ بهم في الدنيا حتى اتّصل بالهلاك الأُخروي، ولذا رُوِيَ في شأن النحوسة الواردة في الآية أنّها «لا تدور»، كما في تفسير العياشي بالإسناد إلى أبي جعفرQ [[43]](#footnote-43).

النحوسة في الروايات

الملاحظ أنَّ حديث النحوسة في الروايات حديثٌ مسهب ومستفيض، واستفاضة الروايات هنا، هي من بعض الجهات مثار شكٍّ وريبة أكثر مما هي عامل اطمئنان وثقة، كما هو المعتاد، وسوف نشير إلى سرّ هذا التشكيك بعد استعراض الروايات الواردة في المسألة، وهذه الروايات يمكن تصنيفها على عدة أصناف:

الصنف الأول: الأيام المنحوسة في الأسبوع

تشير بعض الروايات إلى نحوسة كلّ من أيام الإثنين والأربعاء والأحد، رُوِيَ في الكافي بسندٍ غير نقيّ إلى الرضاQ قال: «.. ويوم الإثنين يوم نحس قبض الله عزّ وجلّ فيه نبيّه وما أصيب آل محمد إلاّ في يوم الإثنين، فتشأمنا به وتبرّك به عدوّنا»[[44]](#footnote-44).

وعن الإمام الصادقQ:«إنّ يوم الأربعاء يوم نحس مستمرّ وفيه خُلِقت جهنّم»[[45]](#footnote-45).

وفي حديث آخر عنه Q: «السّبت لنا والأحد لبني أمية»[[46]](#footnote-46).

الصنف الثاني: الأيام المنحوسة في الشهر

وهي على ما قيل: سبعة أيام: الثالث والخامس والثالث عشر والسادس عشر، والحادي والعشرون والرابع والعشرون والخامس والعشرون، ورد ذلك في حديث طويل رواه السيد ابن طاووس عن الصادقQ، ويدعو فيه لعدم طلب الحوائج في هذه الأيام، معلّلاً نحوستها بوقوع بعض الأحداث السيئة والمشؤومة فيها[[47]](#footnote-47).

الصنف الثالث: الأيام المنحوسة في السَّنة

ورد في رواية عن الإمام الصادقQ: «أنّ في السَّنة اثني عشر يوماً نحسات في كلّ شهر منها يوم...»[[48]](#footnote-48).

وفي رواية عن أمير المؤمنين Q: «أنها أربعة وعشرون، في كلّ شهر يومان...»[[49]](#footnote-49).

وتتحدّث أكثر من رواية عن نحوسة يوم عاشوراء، منها: خبر صالح بن عقبة عن أبي جعفرQ: «إن استطعت أن لا تنتشر يومك في حاجة فافعل، فإنّه يوم نحس لا تقضى فيه حاجة مؤمن، فإن قُضِيَتْ لم يبارك ولم ير فيها رشداً..»[[50]](#footnote-50).

ملاحظات وتأملات

إننا وأمام هذا الحشد من الروايات لا بدّ أن نسجِّل الملاحظات التالية:

أولاً: إنّ حدوث أمرٍ سيء في يوم من الأيام، كولادة طاغية، أو وقوع أمر مفجع، كمقتل نبي أو ولي، لا يحوّل هذا اليوم ولا سيّما مع مرور الزمن إلى يوم سوء، لأنّ الزمان كما قلنا سابقاً لا يُوصف بسوءٍ أو نحوسة، لأنّه مجرد وعاء وظرف يمكن أن يستغلّه الإنسان بفعل الخيرات أو ارتكاب القبائح، وعلى التقديرين، فالمدح أو الذمّ هو للإنسان لا للزمان.

ثانياً: أنّه لو بُني على العمل بهذه الروايات وهي ـ كما اتضح ـ تنصّ على نحوسة ثلاثة أيام في الأسبوع، وسبعة في الشهر، وأربعة وعشرين في السنة، مع الأخذ بعين الاعتبار أنّه ليس من الضروري أن تلتقي هذه الأيام أو تتداخل، فسيكون معنى ذلك باختصار: أننا أمام عدة أشهر في السنة مطلوب فيها الاسترخاء وتجميد مختلف الأنشطة التجارية والاجتماعية والعلميّة وغيرها، والسؤال: أليس هذا مخالفاً لروح الإسلام ومقاصده ونصوصه التي تدعو الإنسان ليكون منتجاً وعاملاً، وأن لا يركن للدَّعة والكسل؟! وكيف نتقبّل أو نتصوّر أنّ الإسلام وهو مشروع دولة ونظام، يدعو إلى ما فيه شلّ حركة المجتمع وتعطيل أجهزة الدولة كلّ هذه المدة الزمنية؟!

ولا شكّ أنَّ تساهل الفقهاء إزاء الروايات المذكورة حول نحوسة الأيام وتعاملهم معها على أساس قاعدة التسامح في أدلّة السنن كان له محاذير نفسيّة واجتماعيّة واقتصادية، يقول المرجع الراحل السيد محمد حسين فضل الله(رحمه الله): «إنّ الطريقة التي يثير فيها الأسلوب الفقهي مسألة المكروهات في باب السفر وفي أبواب الأعمال العادية المتعلّقة بأوضاع الإنسان العامة والخاصة، قد يؤدّي إلى الكثير من الشلل والجمود على المستوى العملي بحيث تتعطل مسيرة الحياة العامة للإنسان، فتؤدّي إلى الكثير من الأضرار النفسية والاجتماعية والاقتصادية، وقد تنعكس في بعض الحالات على الأوضاع السياسية عندما تتحوّل الأمّة إلى أمّة خائفة من الزمن في نشاطاتها العامة والخاصة»[[51]](#footnote-51).

ثالثاً: إنّ الروايات المذكورة فضلاً عن كونها في معظمها ضعافاً ومراسيلَ ومرفوعات[[52]](#footnote-52)، فإنّها معارضة بما ينفي النحوسة ويدعو إلى تمزيق هذه العادات البالية، ففي الحديث عن أبي الحسن الهاديQ: أن رجلاً نكبت إصبعه، وتلقّاه راكب فصدم كتفه ودخل في زحمة فخرقوا ثيابه، فقال: كفاني الله شرّك فما أشأمك من يوم، فقال أبو الحسن: هذا وأنت تغشانا (تتردّد علينا)! ترمي بذلك من لا ذنب له، ما ذنب الأيام حتى صرتم تتشأمون بها إذا جوزيتم بأعمالكم فيها؟! فقال الرجل: أنا أستغفر الله، فقالQ: والله ما ينفعكم ولكن الله يعاقبكم بذمِّها على ما لاذم عليها فيه، أما علمت أن الله هو المثيب والمعاقب والمجازي بالأعمال، فلا تَعْدُ ولا تجعل للأيام صنعاً في حكم الله»[[53]](#footnote-53).

وفي الحديث عن أبي الحسن الثانيQ: «من خرج يوم الأربعاء لا يدور (الأربعاء الذي لا يدور هو آخر أربعاء من الشهر، كذا قيل) خلافاً على أهل الطيرة وُقي من كلّ آفة، وعوفي من كلّ عاهة وقضى الله عز وجل حاجته»[[54]](#footnote-54)، وأهمية الرواية الأخيرة أنّها تدعو إلى كسر الاعتقاد الشائع حول نحوسة يوم الأربعاء، من خلال لسانها الذي يحثّ على مخالفة أهل الطيرة ويَعِدُ من خالفهم بالمعافاة من كلّ آفة.

رابعاً: يلوح من الرواية الأخيرة وسواها من الروايات أنَّ للنحوسة علاقةً باعتقاد الإنسان، فمن يعتقد بنحوسة يوم فقد يتحوّل هذا اليوم فعلاً إلى يوم نحسٍ بالنسبة إليه، لا من خلال إرادة الله لذلك بشكل مباشر، وإنّما لأنّ هذا الاعتقاد سيقود صاحبه بشكل لا إرادي ليعيش حالة من القلق والتوتر النفسي على امتداد اليوم، ومن الطبيعي أن يربط حينئذ كلّ حادث سيىء يصيبه في ذلك اليوم بتلك النحوسة، بل حتى لو لم يصبه حادث عرضي، فإنّ نفس تلك الحالة النفسية الضاغطة على عقله ومشاعره قد تؤثّر على توازنه وتُوقعه في الأخطاء والحوادث المؤلمة، ولهذا فإنّ الروايات التي تدعو إلى معالجة نحوسة الأيام بالصدقة أو التوكـل علـى الله، كمـا في الحديـث الصحيـح عـن الإمـام الصـادقQ: «تصدّق واخرج أيّ يوم شئت»[[55]](#footnote-55)، هي في حقيقة الأمر تهدف إلى معالجة هذه الحالة النفسية المرَضَيّة.

نحوسة الأعداد

وتمتدّ النحوسة عند بعض الناس إلى الأعداد والأرقام، كما هو الاعتقاد الشائع عند بعض الشعوب بالتشائم من العدد (13)، واعتباره عدد نحس ينبغي اجتنابه في الترقيم حتى لا تصل نحوسته إلى الأشخاص، وإذا اضطرّ أحد لحمل الرقم (13) واستخدامه في بعض شؤونه، فإنّه يتحايل على الرقم، كما لاحظنا ذلك في إيران ـ مثلاً ـ حيث أنّه عندما يصل ترقيم البيوت الذي تعتمده البلديات إلى العدد (13)، فإنّ صاحب البيت يرفض أن يُكتب على اللوحة المخصّصة لذلك رقم (13)، وإنّما يستبدله ويكتب العدد على الشكل التالي (12+1). إنَّ هذا الاعتقاد أيضاً لا قيمة ولا وزن له في منطق العلم والدين، «إذ ليس هناك أدنى تفاوت من زاوية منطقية وعقلية بين العدد (13) وسائر الأعداد الأخرى، لكي يطرح على الأقل احتمال أن يكون هذا التفاوت منشأ للخطأ الفكري والمنطقي البشري»[[56]](#footnote-56) .

\* \* \*

المفردة الثالثة  
التشاؤم: عادة جاهلية رَفَضَها الإسلام

ومن المفاهيم المتشكّلة خارج الفضاء الديني، والمعيقة لتطوّر الإنسان وتقدّمه: مفهوم التشاؤم، أو ما يُعرف بالطِّيرَة، حيث لا يزال بعض الناس يتشاءمون من أماكن معيّنة، أو أيام محدودة، أو أشياء وكائنات مختلفة.

والتشاؤم اعتقاد قديم، فقد كان عرب الجاهلية يتفاءلون بالحمام وبنباح الكلب على مجيء الضيوف، ويتشاءمون من الغراب، حتى ضُرب به المثل، فقيل: «فلان أشأم من غراب البين»[[57]](#footnote-57). ولا يزال التشاؤم بالغراب أو بغيره شائعاً إلى أيامنا هذه، فرؤية الغراب أو سماع صوت البوم أو غيرها هو نذير شؤم تدفع الكثيرين إلى التوقّف عن بعض الأعمال والمهام، ولا سيّما السفر، وإذا ما أتمّ العمل فإنّه يفعل ذلك على مضض أو حذر، يفعله وهاجس الشؤم يتملّكه، وكأنّ الذي يختلج في نفوس الكثيرين أنّ النجاح في العمل مرتبط بهذه الأمور، بأن يكون السفر ـ مثلاً ـ في أزمنة محدّدة أو حالات خاصة، بحيث يكون صوت البوم ـ مثلاً ـ نذيراً للشؤم، ومؤشّراً إلى الفشل في العمل أو السفر في هذا اليوم، أو هذه الساعة.

موقفنا من التشاؤم

والإسلام في موقفه الصارم من الجهل وكلِّ ما يعيق تقدّم الإنسان ونموّه، وفي حرصه الشديد على أن تسير الحياة وفق منطق السنن والقوانين ،وَقَفَ موقف الرافض لهذا الاعتقاد الجاهلي، لأنّه اعتقاد غير مبني على علم، أو معتمد على حجّة أو دليل، بل إنّه اعتقاد معيق لتقدّم الإنسانية، لتجاوزه لقانون السنن التي ربط الله بها بين الأسباب والمسبّبات، ومن هنا أنكر القرآن الكريم فكرة التشاؤم في ردّه على تشاؤم قوم موسى بموسى ﴿فَإِذَا جَاءتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُواْ لَنَا هَـذِهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُواْ بِمُوسَى وَمَن مَّعَهُ﴾[الأعراف: 131]، وتشاؤم قوم صالح بصالح: ﴿قَالُوا اطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾[النمل: 47]، وتشاؤم أهل القرية برسلهم: ﴿قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾[يس: 18]، حيث كان الجواب على كلّ هؤلاء بأنّ الشرّ لم يأتِكم من قبل الرسل والأنبياء، وإنّما جاء من قِبَل أنفسكم وما تحملونه من عناد وكفر وخبث، ﴿قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ﴾[يس: 19]، ﴿أَلا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِندَ اللّهُ﴾[الأعراف: 131].

إلى ذلك فإن التشاؤم ينافي مبدأ التوكّل على الله سبحانه، ومن هنا يتضح الوجه فيما يأتي من أنّ كفارة الطِّيرَة التوكل، كما أنّه ينافي الإيمان بأنّ الله هو الفاعل والمؤثّر في هذا الكون، ونسبة التأثير إلى غيره تعالى مع عدم وجود ما يؤكّد ذلك وفق قانون العلية لا يخلو من شرْك خفي، وهذ ما أكّدته بعض الأحاديث الواردة في هذا المجال، ففي الحديث عن رسول اللهP: «من ردّته الطِّيرَة عن شيء فقد قارف الشرك»[[58]](#footnote-58)، وفي رواية أخرى: «من ردّتْه الطِّيرَة من حاجة فقد أشرك»[[59]](#footnote-59)، والوجه في نسبة هؤلاء إلى الشرك ـ كما ألمحنا ـ أنّ هؤلاء يتخيّلون أنّهم إذا عملوا بما يقتضيه التشاؤم، فإنّ ذلك يدفع عنهم الضرّ ويجلب لهم النفع، وهذا إن ترافق مع اعتقادهم بأنّ ذلك حاصل وواقع خارج إرادة الله وبصرف النظر عن تقديره فهو الشرك الجليّ، وأمّا إذا اعتقدوا أنّ هذا إنما يحصل وفق تقدير الله سبحانه، فهذا اعتقاد باطل ولا دليل عليه، وهذه الروايات التي تصف ذلك بالشرك إنّما ترشد إلى بطلان هذا الاعتقاد ومنافاته لمبدأ خلوص التوحيد لله سبحانه.

وفي ضوء ذلك يتّضح الحكم الشرعي للتطيّر والتشاؤم، فالتشاؤم إن كان ينطلق من اعتقادٍ بمؤثّرية بعض الأشياء في الشرّ أو الخير، بعيداً عن تقدير الله وتخطيطه فيكون محرّماً ومنافياً لمبدأ التوحيد، وأمّا إذا كان ينطلق من الاعتقاد بأنّ مؤثرية بعض الأشياء في الخير أو الشرّ جارية وفق قضاء الله وتقديره وتخطيطه، فهذا لن يكون اعتقاداً مُخرجاً عن الدين، ولكنّه اعتقادٌ باطل ولا شاهد عليه لا من علم ولا من وحي، والاصرار عليه يمثّل عناداً وتمرّداً على تعاليم الدين، وذلك محرّم بكلّ تأكيد.

هذا ما تقتضيه القواعد الإسلامية، لكن قد ورد في بعض النصوص الصحيحة رفع المؤاخذة على الطيرة، ففي الحديث عن رسول اللهP المعروف بحديث الرفع: «رفع عن أمتي تسعة: الخطأ والنسيان وما أكرهوا عليه وما لا يطيقون، وما لا يعلمون، وما اضطُرّوا إليه والحسد والطيرة والتفكّر في الوسوسة في الخلق ما لم ينطق بشفة»[[60]](#footnote-60)، فكيف نفسّر ذلك؟ وإذا كان ثمّة اعتقاد يلامس الشرك بالله فكيف يكون مرفوعاً عن العباد ولا يؤاخذون عليه؟!

والجواب: إنَّ المرفوع ـ ظاهراً ـ ليس هو المؤاخذة على الطيرة بما هي اعتقادٌ وموقف فكريّ سواء كان يُمثِّل شِركاً بالله أو لا يمثّل ذلك، فإنّ هذا الاعتقاد بما أنّه أمرٌ اختياري للإنسان فهو اعتقاد باطل ومرفوض ولا يجوز تبنّيه، وهكذا فإنّ ترتيب الأثر العمليّ على الطيرة ليس مرفوعاً، وإنّما المرفوع هو حالة الانقباض النفسي التي تعتري الإنسان عندما يواجه بعض ما يُوجب التشاؤم ما يدفعه إلى الانسياق عملاً مع هذه الحالة، فإنّ الانقباض المذكور يُعبِّر عن حالة لا إرادية عند مَنْ يؤمن ويعتقد بالتشاؤم، ولذا كان مقتضى لطف الله ورحمته بالعباد أن يرفع المؤاخذة على ما ليس إرادياً للإنسان، دون ما كان اختيارياً له وهو نفس الاعتقاد، ويشهد لما نقوله سياق حديث الرفع نفسه، حيث عُطف على رفع الطيرة رفع «الوسوسة في التفكير في الخلق» ـ التي هي عبارة عن حديث النفس الذي يفرض نفسه على الإنسان بشأن الله سبحانه، من قبيل التساؤل: أنّه إذا كان الله هو الذي خلقنا، فمن خلق الله؟ ـ ومن المعلوم أنّ الوسوسة المذكورة هي أمرٌ غير اختياري يقتحم على الإنسان أفكاره، كما أنّ قوله P «ما لم ينطق بشفة» والذي هو قيد للثلاثة الأخيرة، أعني الحسد والطيرة والوسوسة في الخلق، شاهد أيضاً على أنَّ رفع هذه الأمور مشروط بأمر وهو أن لا يتفوّه الإنسان بها ويترجمها بقولٍ أو فعل.

نصوص على طاولة النقد

ثم أنّه وأمام هذا الموقف الإسلامي الرافض لفكرة التشاؤم والتطير لا نجد مفراً من رفض بعض النصوص التي تُنسب إلى الرسولP والتي تؤكّد على صحّة التشاؤم من بعض الأمور، من قبيل ما رواه البخاري عنهP: «إنّما الشؤم في ثلاثة: في الفرس والمرأة والدار»[[61]](#footnote-61). وقد لاحظنا أنّه وبسبب منافاة هذا الحديث لما ورد في القرآن الكريم والسنة النبويّة، ومنها: قولهP: «لا طيرة»، مما رواه البخاري نفسه[[62]](#footnote-62) فقد احتار العلماء في تفسيره وتوجيهه، فقال: مالك وطائفة: هو على ظاهره، وأنّ الدار قد يجعل الله تعالى سُكناها سبباً للضرر أو الهلاك، وكذا اتخاذ المرأة المعينة أو الفرس أو الخادم.. وقال الخطابي وكثيرون: هو في معنى الاستثناء من الطِّيرةَ، أي الطِّيرَة منهيٌّ عنها، إلاّ أن يكون له دار يكره سكناها، أو امرأة يكره صحبتها، أو فرس، أو خادم فليفارق الجميع بالبيع ونحوه، وطلاق المرأة، وقال آخرون: وشؤم الدار: ضيقها وسوء جيرانها وأذاهم، وشؤم المرأة: عدم ولادتها، وسلاطة لسانها، وتعرّضها للريب، وشؤم الفرس: أن لا يُغزى عليها، وقيل: حِرانُها وغلاء ثمنها، وشؤم الخادم: سوء خلقه وقلّة تعهده لما فُوِّض إليه، وقيل: المراد بالشؤم هنا عدم الموافقة..»[[63]](#footnote-63).

وهذه التوجيهات هي مجرّد تأويلات لا يُساعد عليها ظاهر الحديث، على أنَّ بعضها مرفوض ولا يمكن الموافقة عليه، من قبيل ما وُجِّه به شؤم المرأة من عُقمها، وسلاطة لسانها، فإنّ هذا جارٍ في الرجل أيضاً، فقد يكون عقيماً أو سليط اللسان، وهكذا ما ورد في تفسير وتوجيه شؤم الخادم أو الفرس أو الدار، فإنّها جارية في أشياء كثيرة، فما الموجب لتخصيص هذه الثلاثة بالشؤم؟! ولذا، فالأجدر رفض هذا الحديث وأمثاله، تنزيهاً لساحة النبيP عن مثل هذه الترّهات.

لا واقعية للتشاؤم

وبصرف النظر عن الموقف الإسلامي الرافض لفكرة التشاؤم، فلو أننا درسنا المسألة دراسة واقعيّة، فلن نجد ما يؤكّد صدقيّتها وواقعيّتها، فما أكثر ما يواجه الإنسان بعض الأشياء التي يتشاءم بها الناس، ولا يبالي بذلك ويسير في عمله أو سفره ولا يُصاب بمكروهٍ، بل يُوفّق في عمله وسفره، ولا سيما إذا كان ممن لا يؤمن بالطيرة أو لا يلتفت إلى أنَّ هذا الشيء هو من موجبات التطير والتشاؤم عند الناس، وهذا ما يؤشّر إلى أنّ القضيّة لا تعدو أن تكون حالة نفسيّة بحتة يعيشها الشخص بحكم اعتقاده بوجود رابط بين ما يواجهه من أسباب التشاؤم، وبين فشله في عمله وسفره، وهذا الاعتقاد المتجذّر في النفس قد يؤثّر على توازن الشخص ما قد يؤدّي إلى فشله في عمله أو تجارته أو سفره، وهذا ما يُوهِم الكثيرين بواقعية التطيّر في غفلة عن أنّه لا رابط بين الأمرين، ولا وجود لأيّة علاقة سببيّة بينهما، وليس ثمة ما يؤكّد صدقيّة هذا الربط أو واقعيّته، لا من العقل ولا من العلم، ولا الواقع يؤكّد ذلك كما قلنا، وإلاّ لو كان ثمة رابط بين الأمرين لعمّت القضية وشملت كل الناس، مع أنّها لا تواجه إلاّ من يعتقد بها، ويسيطر عليه هاجس الشؤم، فيُصاب بالتوتّر والقلق ويفشل في نشاطه التجاري أو سفره أو زواجه.. وهذا ما يؤكّده الحديث المرويّ عن الإمام الصادقQ: «الطيرة على ما تجعلها، إنْ هوّنتها تهوّنت، وإن شددتها تشدّدت، وإن لم تجعلها شيئاً لم تكن شيئاً»[[64]](#footnote-64).

وفي حديث آخر عنهQ: «..وكما لا تضرُّ الطِّيرَةُ من لا يتطيّر منها، كذلك لا ينجو من الفتنة المتطيّرون»[[65]](#footnote-65).

وربما يتساءل البعض، إذا كان التشاؤم فكرة موهومة ومُتَخيّلة ولا واقعيّة لها، فكيف اعتقد بها الكثير من شعوب العالم، ولا يزال الاعتقاد بها شائعاً إلى اليوم؟

والجواب: أنّه ربما يكون التشاؤم من بعض الأشياء، قد انطلق في بداية الأمر من اقتران اتفاقي مؤثّر ومتكرّر لأكثر من مرة بين رؤية أحد الأشياء، ووقوع حادث مؤلم، فتخيّل الناس من خلال الذهنيّة الساذجة غير المتبصّرة بالأمور، وجود علاقة سببيّة بين الأمرين.

علاج التشاؤم

وفي سبيل التخلّص من عادة التشاؤم، فقد اعتمد الإسلام أسلوباً متمايزاً يمزج بين الفكر والتربية، وتوضيح ذلك: أنّه لو كنا أمام اعتقاد يعبّر عن حالة فكرية بحتة، لأمكنت مواجهته بالموقف الفكري المضادّ، وذلك من خلال التأكيد على رفض فكرة التشاؤم لعدم واقعيّتها، ومنافاتها لمبدأ التوكّل على الله، إلاّ أننا في حقيقة الأمر أمام اعتقاد يعبّر عن حالة فكرية ونفسيّة متجذّرة في النفوس نتيجة التربية والعادة، ولذا كان من الضروري لمواجهة هذه الحالة اعتماد أسلوب تربويّ يتخطّى مجرّد الموقف الفكري الذي تقدّم الحديث عنه، وهذا ما نلحظه في الوصايا الواردة في الروايات، فإنّها أكّدت على اتباع جملة من الخطوات أهمّها:

1 ـ تأكيد مبدأ الارتباط بالله والتوكّل عليه، باعتباره المالك لكلّ شيء، والقادر على كل شيء، ففي الحديث عن رسول اللهP: «كفارة الطيرة التوكّل»[[66]](#footnote-66).

2 ـ مخالفة ما يقتضيه التشاؤم وعدم الانسياق معه، ففي الحديث عن رسول اللهP: «إذا تطيرت فامضِ، وإذا ظننت فلا تقضِ، وإذا حسدت فلا تبغِ»[[67]](#footnote-67).

إنّ علينا كمؤمنين أن نعمل على رفض فكرة التشاؤم بالأزمنة أو الأمكنة أو الحيوانات أو غير ذلك، وأن نربّي أمّتنا على عدم الانسياق مع هذه الفكرة وذلك بالتوكّل على الله سبحانه وتعالى والاعتماد على تأييده وتسديده.

\* \* \*

المفردة الرابعة  
مفهوم الحظ في الميزان الإسلامي

إنَّ كلمات: الحظّ، النصيب، البخت تعبّر عن مفهومٍ واحد يمكن اعتباره من المفاهيم المتشكّلة خارج الإطار الديني، لكن المِخيال الشعبي أضفى عليه صفة دينية، أو على الأقل تمّت مصالحته مع الدين، أو اعتُبر منسجماً مع التعاليم الدينية وغير منافٍ لها، ومفهوم الحظ هذا الذي يحتجّ به الكثيرون لتبرير إخفاقاتهم في الحياة، سواء على المستوى الاجتماعيّ أو الاقتصاديّ أو السياسيّ... أو على مستوى الفرد أو الجماعة، ليس مفهوماً حادثاً ولا اعتقاداً مستجدّاً، بل إنَّ له امتداداً في تاريخ البشر على اختلاف أديانهم وقومياتهم وألسنتهم.

الحظّ في الأدب والأمثال الشعبية

وقد ظهر هذا المفهوم جلياً في الأدب والشعر العربي والفارسي، قال ابن الرومي:

إنّ للحظّ كيمياءً إذا ما

مسّ قرداً أحاله إنساناً

وقال شاعر آخر:

إن حظّـي كدقيق

بيـن شوك نَثَرُوه

ثم قالوا لحُفـــاةٍ

يوم ريـحٍ اجمعوه

صَعُبَ الأمر عليهم

قال قوم اتـركوه

إنّ من أشقـاه ربي

كيف أنتم تُسعِدوه؟

إنّ انتشار مفهوم الحظ في الأدب والشعر يعكس رسوخه واستحكامه في أذهان النخبة، فضلاً عن العامة، كما يعكس ذلك بوضوح دخوله في الأمثال الشعبية، من قبيل المثل الشائع «إدّيني حظ وارميني في البحر»، أو المثل القائل: «من ليس له حظ فلا يتعب ولا يشقى»، أو القول لمن لم ينجح في عمله بتهكم: «حظك يفلق الصخر»، أو المثل الشائع عند المصريين «الحظّ لمّا يواتي يخلّي الأعمى ساعاتي والمكسّح عجلاتي»، أو نحوها من الأمثال.

إن الأفكار التي يتم التعبير عنها عبر الأمثال الشعبية هي أفكار منغرسة في الأذهان ومستحكمة في النفوس، وقضية الأمثال الشعبية بحاجة إلى دراسة متأنية للتعرّف على كيفية تشكّلها وبيان منطلقاتها وتأثيراتها، وقد يكتشف الباحث أنّ الكثير من هذه الأمثال تمثّل حِكَماً بالغة ومفيدة اقتبسها الإنسان من الأنبياء أو الحكماء، أو أنّها حصيلة تجربة وخبرة إنسانية طويلة، وأحياناً تعبّر عن مفاهيم مغلوطة، أو مشوّهة، كما هو الحال في أمثلة الحظّ أو النصيب المشار إليها.

وقد تزداد قناعة الناس بفكرة الحظّ من خلال مشاهداتهم أو معايشتهم لبعض الأحداث، حيث يحدّثونك أنَّ شخصين ـ مثلاً ـ قاما بنفس العمل، وهما يمتلكان الخبرات نفسها، ومع ذلك فقد نجح أحدهما وحالفه الحظ دون الآخر، أو أنَّ فلاناً وفلاناً اللذين تعرضا للحادث نفسه قد نجا أحدهما وتضرّر الآخر، ولا يجدون تفسيراً لذلك إلا الحظ.

الموقف الإسلامي

لقد كنت تناولت هذا المفهوم ـ مفهوم الحظ ـ بالنقد في بحث منشور حول نظرة الإسلام إلى العمل[[68]](#footnote-68)، لكن ذلك كان حديثاً عابراً لم يفِ الموضوع حقّه، وقد أثار تساؤل بعض القراء، ولذا رأيت أنَّ الأمر بحاجة إلى مزيد بيان وتركيز، وما يمكن أن نقوله هنا بشأن الموقف الإسلامي من هذا المفهوم:

الاعتقاد بالحظ وشائبة الشرك

أولاً: إنّ الحديث عن الحظ كما لو كان قدراً يرسم مصير الإنسان ويحدّد مساره، بعيداً عن إرادة الله سبحانه وتعالى وتخطيطه، أمر مرفوض في المنطق الإسلامي، بل إنّ الاعتقاد بذلك يحمل شائبة الشرك بالله، فليس ثمة شيء مؤثر في هذا الكون خارج إرادة الله.

وعلى فرض تجاوز هذه الإشكالية من خلال ربط «الحظ» بالتدبير الإلهي والإرادة الإلهية، ليصبح ـ أيّ الحظّ ـ مرادفاً لما قسمه الله للناس من حظوظ وقدّره من قضاء، بعيداً عن الصدفة أو العشوائية، إنّه بناء على هذا التفسير لا يغدو مفهوم الحظ منكراً شرعاً، لكن يبقى أن يقال: إنّه لا داعي لهذه التسمية، ولنسمّ الأشياء بأسمائها بحيث نعبّر عن ذلك بالتقدير أو التدبير أو التوفيق وليس الحظ، ومع صرف النظر عن هذه الملاحظة الشكلية، ولا سيما أنّه قد قيل: لا مشاحة في الاصطلاح، والتسليم بمشروعية المفهوم وفقاً للتفسير المذكور، فإنّ ثمة ملاحظة أخرى لا يمكن تجاوزها أو إغفالها، وهي أنّ فكرة الاعتقاد «بالحظ السيّئ» تحديداً، لا بدّ من استبعادها، لأنّ ما يريده الله ويقدّره لعباده هو خيرٌ محض، فهو لا يفعل إلاّ ما فيه مصلحتهم وإن كانوا لا يدركون ذلك، نعم وصف «السيّئ» قد يكون مقبولاً نسبياً، وأمّا على نحو الإطلاق فلا، لأنّه ليس هناك شيء مما خلقه الله سيّىء أو شرّ بالمطلق، بل إنّ الأمور التي نخالها شروراً قد يكون الخير كامناً في ثناياها من حيث لا ندري، وكما قال الإمامQ في دعاء الافتتاح: «ولعلّ الذي أبطأ عني هو خيرٌ لي لعلمك بعاقبة الأمور».

الاعتقاد بالحظ وشائبة الجبر

ثانياً: إنّ الاعتقاد بأنّ للحظ تأثيراً في رسم المستقبل وصناعة الأحداث بعيداً عن إرادة الإنسان نفسه لا يخلو من شائبة الجبر، لأنّ معنى ذلك: أنّ الحظ قدر لا مفرّ منه ولا مجال لتغييره، وأنّه يتحكّم بمصير الإنسان ويحدّد نجاحه وإخفاقه وسعادته وشقاءه، دون أن يكون لهذا الإنسان دورٌ في التغيير، وهل يعني ذلك سوى أمر واحد وهو أنّ الإنسان ريشة في مهب الريح يتجاذبه الحظ ويتقاذفه النصيب؟! والحقيقة، إنّ هذا النوع من الجبر هو أسوأ ـ بمراتب ـ من الجبر الكلامي الذي اعتقدتـه بعض الفـرق الإسلاميـة، لأن ذاك ـ أعنـي الجبـر الكلامي ـ يفترض سلب إرادة الإنسان وإلغاء دوره في الفعل لصالح إرادة الله وفاعليته، أي أنّه يسلب اختيار الإنسان حفاظاً على عقيدة التوحيد، كما يزعم أصحاب هذا الرأي، بينما الجبر المشار إليه في المقام يسلب إرادة الإنسان وقدرته على الفعل لصالح قضية موهومة، هي فكرة الحظ.

وخلاصـة القول: إنّه ليس في منطق الإسـلام شـيء اسمـه الحـظ والنصيب خـارج نطـاق التدبيـر والتقدير الإلهي، بل كلّ شيء يجـري وفق ميزان معلوم ﴿وَالسَّمَاء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾[الرحمن: 7]، وكل شيء قد وضع في مكانه المناسب ﴿إِنَّا كلّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾[القمر: 49] ، كما أنّه ليس في منطق العلم أيضاً شيء اسمه الصدفة أو الحظّ أو العشوائية أو العبث، وإنّما هناك القوانين الكونية والسنن الإلهيّة التي يُعَدُّ كلّ مَنْ وفّق للأخذ بها فائزاً، وسيكون النجاح حليفه ولو كان فاجراً أو كافراً، ومن تخلف عنها فقد هوى، وإن كان مؤمناً تقياً.

الحظّ والفشل

ثالثاً: إنّ الاعتقاد الذي يتملّك الكثيرين بأنّ واقعهم المزري وما يكابدونه من الفقر والمرض والاستبداد والظلم هو حظهم الذي لا مفرّ منه، أو نصيبهم المكتوب عليهم في هذه الحياة، وأنّ واقع الآخرين الذين يعيشون برخاء وطمأنينة بعيداً عن الفقر والقهر، هو أيضاً حظّهم ونصيبهم في هذه الحياة، ولا مجال لتغيير حظّ هؤلاء ولا أولئك، هو ليس اعتقاداً باطلاً فحسب، بل هو اعتقاد معطِّل للطاقات، قاتل للطموح والأمل في التغيير، و«ببركة» هذا الاعتقاد ونحوه من الاعتقادات التخديريّة ورثت أمّتنا فائضاً من التخلّف والتقهقر.. إنّ الكسالى هم الذين يتشبّثون بمفهوم الحظ لتبرير فشلهم وتقاعسهم وتقصيرهم و«زهدهم» في العمل وقصور همّتهم عن النشاط والحيوية، ويتّخذونه «شمّاعة» يعلّقون عليها فشلهم وكلّ هزائمهم، ولنِعمَ ما قاله الشهيد مطهري في هذا المجال: «إنّ فكرة الحظ من الأفكار الوهمية التي ظهرت لتعبّر عن غياب جميع قوانين الكون وسننه في الذهنية السائدة» ويضيف: «واضح أنّ الحظ فكرة لا تقوم على أساس أيّ منطق علميّ أو فلسفيّ أو قرآنيّ لكنّها سَرَت في مجتمعاتنا إلى كلّ مواقف حياتنا الصغيرة والكبيرة»[[69]](#footnote-69).

المفردة الخامسة  
الإصابة بالعين بين الحقيقة والخرافة

ومن جملة المعتقدات التي هي مثار جدل كبير، إنْ لجهة واقعيتها، أو لجهة شرعيّتها، قضية «العين»، أو ما يُعرف بـ «صيبة العين». فما هو المراد بالعين؟ وما هو الموقف العلمي والإسلامي منها؟

تعريف العين وعلاقتها بالحسد

«العين» ـ بناءً على مصداقيتها ـ هي عبارة عن نظر المرء باستحسان مشوب بحسدٍ وخبث بحيث يحصل للمنظور إليه ـ إنساناً كان أو حيواناً أو شيئاً ـ ضرر أو عطب، قال ابن منظور: «والعين: أن تصيب الإنسان بعينٍ، وعان الرجل يعينه فهو عائن والمصاب معين»[[70]](#footnote-70).

والإصابة بالعين ـ على فرض صحتها ـ لا يتمكّن منها كلّ الناس، وإنما تحصل من بعض ذوي النفوس الخبيثة التي يتملّكها الحسد ويسيطر عليها الشعور بالنقص، وهي ـ أعني العين ـ قد تؤثر بصورة عفوية غير إرادية بمعنى أنّ العائن لا يدرك ولا يشعر بما يترتّب على نظرته من إضرار بالآخرين، ولذا قد يضرُّ بعض محبّيه على ما يُقال، حتى أنّه ورد في بعض التعويذات الشعبية الاستجارة من عين المحبّ «حفظتك بالله من عين أمك وأبوك واللي بيحبوك». كما أنّها قد تؤثّر بصورة إرادية متعمّدة، ويحكى أنَّ بعضهم إذا أراد أن يصيب أحداً بالعين تجوّع ثلاثة أيام ثم ينظر إليه فيصرعه![[71]](#footnote-71).

ولكن ما هي النسبة بين الحسد والعين؟ وهل أن كلّ حاسد هو في معرض إصابة غيره بالعين؟

والجواب: إنَّ الحسد هو عبارة عن انفعال نفسي يتمنّى صاحبه زوال النعمة عن المحسود سواء رغب الحاسد أن تكون النّعمة له أم لا . وهذا الانفعال الذي يتحكّم بالحاسد بسبب عُقَده النفسية وخُبث سريرته ربما بقي حبيساً لديه، وفي حدود الأماني وهذا هو الحسد، وربما خرج عن حيّز الأمنية إلى حيّز الفعل وإلحاق الضرر بالغير، إما عن طريق اليد أو اللسان أو العين ـ إن ثبت أنّ للعين قدرة على التأثيرـ والحالة الأخيرة فقط هي التي تسمّى بالعين، وبذلك يتّضح أنّ النسبة بين الحسد والعين هي العموم والخصوص المطلق باصطلاح المناطقة، أي أنّ كلّ عائن حاسد، وليس كلّ حاسد عائن.

تجذّر الاعتقاد بالعين

الاعتقاد بالعين هو اعتقاد قديم وواسع الانتشار، فقد عرفته مختلف الشعوب، فآمن به الفينيقيون والفراعنة واتخذوا للوقاية من العين الأحجبة والتعاويذ والخرز الأزرق، كذلك آمنت به الشعوب الأوروبية لا سيما الإيطاليين،فقد ذكر أنّ البابا بيوس التاسع كان يصيب بالعين، وأنّه تسبّب في قتل مئات الأشخاص بسبب نظره إليهم طويلاً، ونحوه ما يُحكى عن ملك إسبانيا ألفونس الثالث عشر، والاعتقاد عينه منتشر لدى الشعوب والقبائل الإفريقية[[72]](#footnote-72).

وأما لدى القبائل العربية، فإنّ الاعتقاد بإصابة العين متجذّر ويعود إلى العصر الجاهلي، حيث اعتقد العرب أنّ عيون بعض الناس «لا تنتج إلاّ شراً وهي لا تكاد تكون في خير مطلقاً، ولذلك تجنّبوا العائن وابتعدوا عنه، وقد تفنّنوا في ابتداع وسائل الوقاية من العين، فاستعملوا الحرز والتعاويذ والرقى والتمائم، من قبيل تعليق كعب الأرانب أو منقار الغراب على أنفسهم، كما اتقوا العين الصائبة بوضع الوشم على الخدين والذقن، ومن الأمثال العربية المتعلّقة بإصابة العين قولهم: «إنَّ العين تدني الرجال إلى أكفانها والإبل إلى أوضامها» والأوضام جمع وضم وهو ما يوضع عليه اللحم من خشب أو غيره[[73]](#footnote-73).

وبالنظر إلى عصرنا الحاضر، فإنّنا نلاحظ أنّ الاعتقاد بالعين لا يزال منتشراً في مختلف الأوساط ولدى كافة الشعوب، سواء من أتباع الأديان السماوية أو غيرهم، مع أنّ نسبة المعتقدين بالعين قد تتدنّى في أوساط المتعلّمين وطلاب الجامعات وذوي الاختصاصات العلميّة.

حقيقة تأثير العين

ثمة أقوال ووجوه متعدّدة في تفسير حقيقة العين وبيان تأثيرها:

1 ـ **التفسير الاتفاقي:**

ومفاده أنّ إرادة الله وسنّته جرت على إحداث تغيير في المحسود والمعيون عند نظر العائن إليه وتحديقه فيه دون أن يكون هناك علاقة سببية بين الأمرين، وإنما المغيّر والفاعل هو الله، لكن تغييره حصل اتفاقاً عند نظر العائن، وقد تبنّى هذا الرأي السيّد المرتضى وأبو القاسم البلخي وأبو هاشم[[74]](#footnote-74).

وهذا التفسير، فضلاً عن افتقاره إلى الدليل، فإنّه يحمل إنكاراً ضمنياً لتأثير العين.

2 ـ التفسير المادي: وله تقريبان:

أحدهما: التقريب الساذج المنسوب إلى الجاحظ، وحاصله: أنّ ثمة أجزاءً مادية تنفصل من العين وتتصل بالجسم المحسود فتؤثر فيه تأثير السُّم في الجسم الملدوغ.

الثاني: وهو التقريب الذي يعطيه البعض لبوساً علمياً، وخلاصته: أنّ العين بتركيبتها الفيزيائية هي أشبه بعدسة مكبرة تستجمع الأشعة الكهرومغناطيسية الموجودة في جسد الإنسان وتوجّهها نحو الأشخاص والأشياء، وكما أنّ المكبّر يحرق الورق والهشيم اليابس تحت وطأة الأشعة الشمسية الموجهة بواسطته، فإن العين أيضاً وبتوسّط هذه الطاقة الكهرومغناطيسية قد تحرق أنسجة محدّدة في الجسم الإنساني أو الحيواني أو النباتي أو غيره[[75]](#footnote-75)، ومن هنا يُنقل أنّ بعض الأشخاص ربما ينظر إلى كأس فيحرّكها من مكانها أو يكسرها، أو ما إلى ذلك.

إنّ الموافقة على هذا التفسير هي رهن الاعتراف به من أهل الخبرة والاختصاص، الأمر الذي لم نتحقّقه حتى الآن ولم نتوثّق من صحّته.

3 ـ **التفسير النفسي:**

وهو المنسوب إلى الحكماء ومفاده: «أنّه ليس من شرط المؤثر أن يكون تأثيره بحسب الكيفيات المحسوسة... بل قد يكون التأثير نفسانيّاً محضاً..»[[76]](#footnote-76).

وهذا التفسير ـ كما لاحظنا ـ وضع المسألة في إطار الإمكان، وهو ما لا نمانع منه، شريطة أن لا تثبت صحّة تفسير آخر.

إنّ التفاسير الآنفة إنما يكون لها نصيب من المصداقية ويتحتّم اللجوء إليها في حال تمّ الاعتراف بواقعية العين ولم يثبت بطلانها، فهل يمكننا الاعتراف بذلك؟ وبالأحرى هل من دليل يحتم الاعتقاد بواقعية الإصابة بالعين، أم أنّه معتقد أقرب إلى الخرافة منه إلى الحقيقة؟

الإصابة بالعين والإمكان العقلي والعلمي

في الإجابة على ذلك لا بدّ من القول بداية: إنّنا عندما نواجه أمراً ما أو حدثاً معيناً ـ سواء كان متصلاً بالمعتقد أو بالواقع ـ فإنّ علينا أن لا نسارع إلى رفضه ورميه بالخرافة، كما أنّ علينا ألا نكون سُذَّجاً، فنبادر إلى الإذعان به وترتيب الآثار عليه، والموقف الصحيح في هذه الحال أن نضعه في دائرة الإمكان، قال الشيخ الرئيس أبو علي ابن سينا: «كلّ ما طرق سمعك فذره في بقعة الإمكان حتى يذودك عنه واضح البرهان»[[77]](#footnote-77). ومسألة الإصابة بالعين تندرج في هذه القاعدة، أي لا بدّ أن تُوضع في دائرة الإمكان العقلي، إذ ليس ثمّة محذور عقلي في كون العين لدى بعض الناس مؤثرة فيما تحدّق فيه، فلا مبرر لإنكارها، كما أنّه لا بدّ أنْ تُوضع في دائرة الإمكان العلمي، إذ ليس هناك استحالة علميّة في مؤثّريتها، ولا سيّما بملاحظة ما تقدمت الإشارة إليه من وجود قوة كهرومغناطيسية يمتلكها جسم الإنسان بإمكانها التأثير في الأجسام، وإنّ ما يعرف «بالتنويم المغناطيسي» يعتمد على هذه القوة.

إنّ الإمكانية العلميّة، وكذا العقلية قد ترتفع نسبة الاحتمال فيها إلى درجة التصديق، وقد تنخفض إلى درجة الإنكار، وهذا الارتفاع أو الانخفاض مرتبط بوجود القرائن والشواهد العلميّة، أو الدينية، سلباً أو إيجاباً.

وإذا كنا لا نملك شواهد علميّة دقيقة تؤيد الاعتقاد بالعين، فربما يقال بأننا نمتلك شواهد إسلامية في هذا المجال، فهل هذا صحيح؟ وهل تتم هذه الشواهد؟

الموقف الإسلامي من الإصابة بالعين

يبدو أنّ الاعتقاد بإصابة العين لم يحظَ ـ رغم شهرته ـ بإجماع إسلامي، فقد أنكر بعضهم تأثير العين صراحة، كما هو حال الجبائي(أحد أئمة المعتزلة) وفسرّها بعضهم تفسيراً هو أقرب إلى الإنكار، كالشريف الرضي وأبو هاشم وأبو القاسم البلخي الذين رأوا ـ في تفسير العين ـ أنّ الله سبحانه وتعالى ـ وحفظاً للحاسد من الحرام ـ يسلب نعمته من المحسود ويعوّضه بنعمة أخرى بدلاً عنها[[78]](#footnote-78)، وكيف كان، فالمهم هو العثور على سند إسلامي للإصابة بالعين من الكتاب أو السنة.

والظاهر أننا لا نمتلك سنداً إسلامياً يبعث على اليقين أو الاطمئنان بواقعية الإصابة بالعين، ونحن إنما نصرّ على ضرورة توفّر سند يبعث على اليقين أو الاطمئنان، لأنَّ القضية المبحوث عنها ليست من القضايا الفقهية التي يُكتفى فيها ـ وفق بعض المباني ـ بخبر الواحد[[79]](#footnote-79)، أو بغيره من وسائل الإثبات الظني، وإنما هي من القضايا ذات البُعد الاعتقادي التي تحتاج إلى أدلة تفيد اليقين أو الوثوق.

القرآن والإصابة بالعين

حاول البعض التمسّك بالقرآن الكريم، لإثبات صحة الاعتقاد بالعين، وذلك من خلال بعض الآيات، وأهمّها، آيتان:

الأولـى: قولـه تعالى حكاية عن يعقوب Q في وصيّته لأبنائه: ﴿يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُواْ مِن بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُواْ مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِّنَ اللّهِ مِن شَيْءٍ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[يوسف: 67]، فقد فُسِّرت دعوة يعقوب لأولاده بالتفرّق بأنّها حماية لهم من العين، لأنّهم كانوا ذوي جمال وهيئة وكمال[[80]](#footnote-80).

لكنَّ التفسير المذكور غير تام، إذ من الممكن أن يكون السبب وراء أمرهم بالتفرّق هو حمايتهم من الأذى والملاحقة في حال دخولهم مجتمعين من باب واحد.

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ أنّه لَمَجْنُونٌ \* وَمَا هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[القلم 51 ـ 52]، حيث حُمِل قوله «ليزلقونك بأبصارهم» على معنى: يُهلكونك ويصيبونك بأعينهم.

ويُلاحظ على ذلك: بأنّ دلالة الآية على الإصابة بالعين غير واضحة، وغاية ما تدلّ عليه، أنّ الذين كفروا ولشدّة غيظهم ينظرون إلى رسول الله نظرات ملؤها الحقد والغضب تكاد تصرعه، وهذا التعبير متعارف ومألوف ويُراد به بيان حدّة النظرة ولؤم صاحبها، دون أن يكون لها تأثير سلبي واقعاً، ونظيره ما يتردّد على الألسنة في التعبير عن النظرة الحانقة: «يكاد يأكلك بعينيه».

الروايات: تهافت واضطراب

هذا فيما يرتبط بالقرآن الكريم، أمّا السنة فيُلاحظ وجود روايات عديدة واردة في مسألة العين، بيد أنّها في مجملها لا تخلو من ملاحظات، إمّا في سندها أو في دلالتها، الأمر الذي يبعث على التوقّف في بناء الاعتقاد بالعين عليها، ولا سيما بملاحظة أنَّ الروايات المرويّة من طريق أئمة أهل البيتR واردة في المصادر الحديثية الثانوية[[81]](#footnote-81)، وإليك بعض هذه الروايات:

1 ـ في الحديث عن رسول اللهP: «أكثر من يموت من أمّتي بعد قضاء الله وقدره بالعين»[[82]](#footnote-82).

ومع غضّ الطرف عن ضعف سند الرواية، فإنّ مضمونها لا يخلو من استغراب، لأنّها جعلت الإصابة بالعين خارج نطاق القضاء والقدر، مع أنّ من المعلوم أنّه ما من حدثٍ من أحداث هذا الكون يقع خارج نطاق القضاء والقدر، فكيف تكون الإصابة بالعين خارج ذلك؟!

2 ـ ورُوِي عنهP: «العين حق ولو كان شيء سابق القدر لسبقته العين»[[83]](#footnote-83).

ويبدو أنّ هذا الحديث الذي أُورِد في سياق الاستدلال على صحّة الاعتقاد بالعين، هو على عكس المطلوب أدلّ، لأنّ «لو» حرف امتناع لامتناع، فيكون مفاد الحديث أنّه ليس هناك شيء يسبق القدر بما في ذلك العين، نعم لو فرض محالاً أنّ شيئاً سبقه لسبقته العين، فهذا الحديث هو نظير قوله P: «لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»[[84]](#footnote-84)، أو قولهP: «ولو كنت مفضّلاً أحداً لفضلت النساء»[[85]](#footnote-85).

وفي ضوء هذا يتعيّن علينا تفسير ما جاء في صدر الرواية بأنّ «العين حقّ»، هذا التعبير الوارد في العديد من الروايات[[86]](#footnote-86)، وإذا لم نجد تفسيراً وتوجيهاً مقبولاً يوفق بين صدر الرواية وذيلها تعيّن إطرّاحها، أو على الأقل ردّ علمها إلى أهلها بسبب التهافت الملحوظ فيها.

3 ـ وفي الحديث عن عليQ: «العين حق، والرقى حق، والسحر حق، والفأل حق، والطيرة ليست بحق، والعدوى ليست بحق..»[[87]](#footnote-87).

وهذه الرواية فضلاً عن أنّها لم ترد في جميع نسخ نهج البلاغة، وإنّما وردت في نسخة ابن أبي الحديد فقط، فإنّ مضمونها يزيد في وهنها، وذلك من جهتين:

الأولى: اعتبارها أنّ: «السحر حقّ»، وهو أمرٌ مخالف للقرآن، فإنّه ظاهر في عدم واقعية السحر، قال تعالى:﴿سَحَرُواْ أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾[الأعراف:116]، وقال في الموضوع نفسه: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾[طه : 66].

الثانية: أنّها افترضت أنّ «العدوى ليست بحقّ»، وهذا أمرٌ مخالف للوجدان وللحقيقة العلميّة، وقد عالجنا هذا الأمر في مجال آخر[[88]](#footnote-88).

الرقى من العين

وقد يستدلّ على حقّانية العين وتأثيرها بما ورد في الحديث من مشروعية اتخاذ الرقى منها، ولعلّ غالب الروايات الواردة في العين ناظرة إلى ذلك، فقد روي عنه P أنّه سمح باتخاذ الرقى، ورقى الحسنينL [[89]](#footnote-89) وعوّذهما قائلاً: «أعيذكما بكلمات الله التامة من كلّ شيطان وهامة، ومن كلّ عين لامة»، كما أنّه P أذن لأسماء بنت عميس أن ترقي أولاد جعفر بن أبي طالب، وروي أنّ جبرائيل Q رقى رسول الله P، وعلّمه الرقية وهي «بسم الله أرقيك من كلّ عين حاسد الله يشفيك»، فقد يقال: إنّه لا معنى للرقية من العين لو لم تكن حقاً ولها تأثير واقعي.

لكن يمكن القول: إنّ أمره P باتخاذ الرقى والتعويذ من العين ـ لو صحّت الروايات الواردة في ذلك ـ لا يدلّ على تأثير العين ذاتها، إذ ربما كانت الاستعاذة من شرّ صاحب العين، وإنما نُسبت إلى العين، لأنّها الحاسة الأساسية التي تلتقط الصور وترسلها إلى العقل أو القلب فتثيره سلباً أو إيجابـاً، كمـا أنّهـا ـ أعني العين ـ هي التي يظهر عليها أكثر من سائر الحواس الغضب والحنق، وربما يكون في الأمر باتخاذ الرقى محاولةُ علاجٍ نفسي للمنظور إليه، باعتبار أنّ هذه الروايات واردة في ظل واقع يسوده الاعتقاد بالعين وتأثيرها الكبير.

هل الوقوع دليل الصحة؟

وربما يتمسّك البعض لإثبات صدقيّة العين وصحّة الروايات الواردة بشأنها بالوقوع، فإنّ الاعتقاد بالعين لدى مختلف الشعوب ليس مجرّد أوهام، وإنما تُصدِّقه الوقائع والتجارب، وقد قيل : إنَّ الوقوع خير دليل على الإمكان والصحة.

ولنا أن نتأمل في هذا الكلام، وندعو إلى التأكّد من صحّة النقولات التي تُذكر بهذا الصدد، فإنّ ما قد يعتقده الناس تأثيراً للعين قد يكون له أسباب أخرى، ولا علاقة سببيّة بينه وبينها، إلاّ أنّ الاعتقاد الشعبي الراسخ بها هو الذي ينسب لها هذه التأثيرات، وقد علّمتنا التجارب عدم التسرّع في قبول الكثير من المعتقدات الشعبية غير المستندة إلى برهان جليّ مهما كانت درجة انتشارها وشيوعها بين الناس، فما أكثر المعتقدات التي تَبيّن مع الوقت أنّها مجرد أوهام وخرافات، كما هو الحال في الاعتقـاد المعروف حول تأثير حركة النجوم علــى أوضــاع الناس لجهة سعـادتهـم وشقائهـم وأرزاقهـم وجنـس مواليــدهم.. مـع أنّه اعتقـاد ـ كما سلف ـ لا يمتلك نصيباً من الصحة، إلى غير ذلك من الاعتقادات الخرافية والوهميّة.

وخلاصة القول: إنّنا لا نملك دليلاً حاسماً يقطع الشك باليقين في أمر العين وتأثيرها، لكنّنا بالرغم من ذلك لا نستطيع نفي تأثيرها، لأنَّ النفي يحتاج إلى دليل كما الإثبات، وإنّما نضع القضية في دائرة الإمكان الشرعي كما وضعناها في دائرة الإمكان العقليّ والعلميّ، ولا سيّما بملاحظة أنّ الإسلام ورغم محاربته لكلّ أشكال الخرافة التي كانت سائدة في المجتمع الجاهلي لم نجد له موقفاً سلبياً حاسماً بشأن العين، مع أنّ الاعتقاد بها كان شائعاً آنذاك، كما أسلفنا، بل ربما لاحظنا وجود روايات تؤكّد واقعيّتها، وإن ناقشنا فيها سنداً أودلالة.

مبالغات لا مبرّر لها

ثم على فرض واقعيّة الإصابة بالعين، فلا شك أنّ المسألة قد أُحيطت بمجموعة من المبالغات وحيكت حولها الكثير من القصص الخرافية، لدرجة أنَّ بعض الناس يتملّكهم الخوف والرعب إذا نظر إليهم أحد الأشخاص المتّهَمين بالعين، فيعمدون إلى التهرّب أو التخفّي منه، وكذا إخفاء أبنائهم أو إخفاء محاسن الأبناء، خشية تعرّضهم للعين، إنّ هذا السلوك مبالَغ فيه ولا مبرِّر له، وربما كان منافياً لمبدأ التوكّل على الله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلاَنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾[التوبة : 51].

على أنّه لو كان للحاسد هذه القدرة الفائقة على التأثير بمجرّد النظر لدفع عن نفسه الضرر الذي قد يتوجّه إليه من بعض الناس، ولأَراح الأمّة من بعض أعدائها، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ هاجس العين الذي يعيشه البعض قد يدفعهم إلى سوء الظن بالآخرين أو غيبتهم، وربما الإساءة إليهم والتعرّض لهم بالكلام الجارح بما يُسيء إلى إنسانيّتهم ويؤذي مشاعرهم، وربّما يبلغ الأمر حدّاً يُساء فيه الظنّ بصنفٍ كبير من الناس لأنّهم من أصحاب العيون الزرقاء أو العجائز أو الأجرد من الرجال، أو غيرهم ممن يرميهم الناس جهلاً وسفهاً بالإصابة بالعين!

في العلاجات

في ضوء ما تقدّم من عدم ثبوت واقعية العين، فلا يبقى معنى للحديث عن العلاج، وإنّما يكون لحديث العلاج مجال ومتَّسَع إذا كانت الإصابة بالعين واقعية، وعندها نكون بحاجة إلى علاج مزدوج: علاج للعائن وآخر للمعيون.

أما العائن، فإذا كان الأمر إرادياً بالنسية إليه، فإنّه يرتكب عملاً محرّماً بكلّ تأكيد، وأما إذا كانت المسألة غير إراديّة في نتائجها، وإن كانت إراديّة في منطلقاتها، فإنّ بالإمكان معالجته بتهذيب النفس، استناداً إلى النصائح الإسلامية التـي تنهـى عـن الحســد، وتحـثّ الإنسـان على التوازن في شخصيّته، وأن يكون ممن يرجو الخير لعباد الله، وأن يقنع بما آتاه الله، كما قال الإمام زين العابدين Q في الدعاء المعروف بدعاء السحر: «ورضّني من العيش بما قسمت لي». إنّ اللجوء إلى الله والتوكّل عليه والاستعانة به يساعد على ترويض النفس على القناعة، وتطهيرها من الغل والحقد بما يخفف من غلواء الحسد.

أمّا بالنسبة للمعيون أو المصاب بالعين، فإنّ عليه الرجوع إلى أهل الخبرة والاختصاص والعمل بإرشادهم، ويحسن به ويستحبّ له اللجوء إلى الله والاستعاذة به من شرّ كلّ حاسد، ويُسنُّ له ـ أيضاً ـ قراءة المعوّذتين، وغيرهما من آيات القرآن..

وأمّا التعاويذ والرقى الشعبية، سواءً التي تستخدم لأجل الوقاية من العين، كاستخدام الخرزة الزرقاء، أو وضع الأحذية والنعال على أبواب الدور والمحلات .. أو التي تُستخدم لأجل دفع ضرر العين، كسكب الرصاص في الماء .. فإنّها تعاويذ غير مشروعة وهي أشبه بالخرافات، وهكذا الحال في الطلاسم غير المفهومة.

\* \* \*

المفردة السادسة  
التداوي بالقرآن والأحراز و«الطبّ النبوي»[[90]](#footnote-90)

يسود في بعض الأوساط الإسلامية اعتقادٌ خاطىء بشأن مسألة الاستشفاء والتداوي، ويتلخّص هذا الاعتقاد بأن قضية التداوي تعتبر قضية غيبيّة يُرجع فيها إلى النصوص، ووصايا النبيّ P وأهل بيتهR، وليس إلى أهل الخبرة من الأطباء، فهل أنَّ لهذا الكلام نصيباً من الصحة ؟

وبيان الموقف من هذا الاعتقاد يفرض علينا من الناحية المنهجية أن نتوقف في البداية عند المبدأ الأساس في قضية التداوي والاستشفاء، فهل هي قضية غيبيّة تعبّدية وتُؤخذ من النصوص الدينية؟ أم أنّها قضية تعتمد على معطيات مادّية يُرجع فيها إلى أهل الاختصاص؟ ثم ننتقل بعد ذلك للتوقّف عند النصوص الدينية الكثيرة الواردة في التداوي ، محاولين تقديم رؤية منهجية في كيفية التعامل مع تلك النصوص؟

الشفاء وقانون العلية

وعلينا في البداية أن نستذكر القاعدة القرآنية العامة التي تحدّثنا عنها في بداية الكتاب وحاصلها: أنَّ سُنّة الله جرت على ارتباط المسبّبات بأسبابها، وفق قانون العلّيّة الحاكم على هذا الكون، فمن رام الرزق فعليه بالكدّ والعمل، ومن أراد النصر فعليه بإعداد العدّة والعدد، ومن رغب بالشفاء والعافية، فعليه استعمال الدواء المناسب، هذه هي القاعدة الصحيحة المستفادة من القرآن الكريم والسُّنّة النبوية، وعلى الإنسان أن يتحرّك وَفْقَها، ليكتشف أسباب الأمراض وعوارضها، بالملاحظة والتجربة، ويتعرّف على مضادّاتها وطرق علاجها بالوسائل العلميّة، دون أن يعني ذلك المسّ بقدرة الله وصفاته، فالله سبحانه هو الشافي حقيقة، لكنّه يشفي من خلال الأسباب الطبيعية، وبتوسّط الأدوية التي أودع فيها خاصيّة الشفاء، تماماً كما يرزق العباد بتوسّط أسباب الرزق المتعدّدة، من دون أن يعني ذلك إلغاء دور الدعاء، وطلب العافية من الله سبحانه، فإنّنا نطلب منه تعالى أن يَمُنَّ علينا بالعافية مع استعمالنا للدواء، وأخذنا بأسباب الشفاء، ومنه يتّضح معنى قوله تعالى على لسان إبراهيمQ: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء : 80]، فإبراهيمQ لا يريد القول بأنّ الله يشفيه بشكلٍ مباشر، وبعيداً عن أسباب الشفاء، وهذا ما يشهد به السياق، أعني قوله تعالى قبل هذه الآية: ﴿هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ﴾[الشعراء : 79] ، فمن المعلوم أنّ سُنّته تعالى جرت على أن لا يُطعم الإنسان بشكلٍ مباشر، بعيداً عن طلب الرزق، والأخذ بأسبابه، وإنما يطعمه من خلال الطريقة المألوفة في الأخذ بالأسباب.

وأما ما جرى أو يجري مع بعض الأولياء، أو غيرهم من حصول الشفـاء دون استعمـال الـدواء، أو الرزق من دون طلب، كما حصل لمريمO التي حدّثنا القرآن، أنّ رزقها كان يأتيها من عند الله: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَـذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾[آل عمران : 37]، فهي حالات استثنائية ونادرة، تدخل في إطار المعاجز والكرامات، والحياة لا تتحرّك على أساس المعاجز ولا تسير على أساس العجائب، فهذا الطريق إذن طريق استثنائيّ، وليس مُتاحاً لكلِّ الناس، وهكذا لا يمكن التعويل على مجرّد الدعاء وحده، لأنّ الله قد لا يستجيب الدعاء لبعض الموانع، أو لفقد بعض شروط الاستجابة، أو لبعض المصالح التي لا يعلمها غيره، الأمر الذي يحتّم علينا التحرّك وفق القاعدة العامة، أعني قاعدة العلّية وارتباط الأمور بأسبابها، وإنّ الشواهد القرآنية والحديثية التي تؤكّد هذا المبدأ أكثر من أن تُحصى، ويكفي أن نشير هنا إلى أنّ أمر رسول اللهP بالتداوي ليس أمراً تعبّدياً، بل إنه P فسّر ذلك بأنَّ الذي «خلق الداء خلق الدواء»[[91]](#footnote-91)، وسأله رجل: «أأعقل ناقتي وأتوكّل، أو أدعها وأتوكل؟ فقالP: «إعقلها وتوكل»[[92]](#footnote-92).

المفيد وتوقيفية الطب

هذا، ولكنْ للشيخ المفيد رأيٌ مختلفٌ في الطبّ لا يخلو من غرابة، إنْ حُمِل على ظاهره، وحاصل ما يراه: أنّ مسألة الطب و المداواة مسألة توقيفية، ترتبط بالوحي دون سواه، قال رحمة الله:

«الطب صحيح، والعلم به ثابت، وطريقُه الوحي، وإنما أخذه العلماء عن الأنبياء، وذلك أنّه لا طريق إلى علم حقيقة الداء إلا بالسمع، ولا سبيل إلى معرفة الدواء إلاّ بالتوقيف، فثبت أنّ طريق ذلك هو السمع عن العالم بالخفيّات تعالى»[[93]](#footnote-93).

وبالإمكان أن نثير أمام هذا الكلام عدة ملاحظات:

أولاً: إنّ الأخذ به على ظاهره،والالتزام بتوقيفية علم الطب، وأنّ طريقه هو الوحي فحسب، يعني نسف علم الطب وإلغاءه من أساسه، والتنكّر لكلّ الجهود الطبّية الهادفة للتعرّف على أسباب الداء، وخصائص الدواء من خلال التجربة والملاحظة.

ثانياً: إنَّ الداء هو اعتلال جسديّ له أسبابه الطبيعية المفهومة، أو التي يمكن تفهّمها والتعرّف عليها، كما أنّ الدواء هو علاج ومضادّ يحوي خصائص طبيعية معيّنة، من شأنها في حال اكتشافها القضاء على المرض أو محاصرته، فلا الداء أمر غيبي ولا الدواء أمر توقيفي، وعليه فالسبيل الأمثل لمعرفة المرض وأعراضه، والدواء وخصائصه، هو التجربة والملاحظة الدقيقة، لا الوحي والغيب، لأنّ النبيّ محمداًP كغيره من الأنبياء لم يُبعث طبيباً، بل بُعث هادياً ورسولاً للناس كافة، أجل هو طبيب النفوس والقلوب، كما وصفه عليQ: «طبيب دوار بطبه قد أحكم مراهمه وأحمى مواسمه، يضع ذلك حيث الحاجة إليه من قلوب عمي وآذان صم وألسنة بكم، متتبع بدوائه مواضع الغفلة ومواطن الحيرة...»[[94]](#footnote-94) .

ثالثاً: أعتقد أنّ القضية لا تنتهي عند ما قدّمناه، بل نرى ضرورة مقاربتها من زاوية أخرى، هي الأهمّ في المقام، وهي تحتاج إلى دراسة ومتابعة، وحاصلها: ما هي علاقة النبيP كمعصوم بالطب، فهل أنَّ ما يصدر عنه في هذا المجال ـ إنْ ثبت صدوره ـ يُعتبر وحياً إلهياً ينطبق عليه قوله تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾[النجم : 4] أم أنّ سبيله هو سبيل الخبرة المكتسبة من تجارب الحياة؟

والإجابة على ذلك تقودنا إلى الحقل العقائدي الكلامي، لمعرفة أنّه هل يُشترط في النبيP أن يكون عارفاً بكلِّ العلوم والصناعات واللغات، مما لا تمتّ إلى الدين بصلة، أم أنّه لا يُشترط ذلك؟

فإذا بنينا على أنَّ المعرفة بذلك هي شرط في النبوّة، فمن الطبيعي أن نلتزم في المقام بأنّ معرفته P الطبّية تنطلق من خلال وحي الله، وتعليمه له، مما لا مجال معه للخطأ والاشتباه.

وأمّا إذا أخذنا بالرأي الآخر الأقرب إلى الصواب، والقائل: بأنّه ليس من شرط النبوة، المعرفة بذلك والاطّلاع عليه، كما اختاره جمع من الأعلام، أمثال المفيد والمرتضى والسيد محسن الأمين رحمهم الله[[95]](#footnote-95)، فعند ذلك ينفتح باب الاحتمال في أن يكون ما صدر عنهP في الطب ونحوه، منطلقاً من موقع الخبرة التي اكتسبهاP من تجارب الأمم الواصلة إليه، مضافاً إلى تجربته الخاصة، ومعه تغدو الروايات الطبّية حتى على فرض صحّتها خاضعة للسياق التاريخي والظرف الزمني الصادرة فيه، فهي تراث طبي، انطلق من ثقافة ذلك المجتمع وخبراته المتراكمة، التي أضحت ثقافة متواضعة، بالقياس إلى الثورة العلمية الكبيرة على المستوى الطبّي مما توصل إليه الإنسان في القرن الأخير، وقد عرضنا لهذا الموضوع في كتاب الشريعة تواكب الحياة، وسجّلنا على القول بالخبرة بعض الملاحظات.

وفي ضوء ما تقدّم من ملاحظات، فإننا نسجّل تحفّظاً على ما قد يصطلح عليه البعض بالطب الديني والروحاني أو الدواء الشرعي، فإنّ الشرع ليس له أدويته وعقاقيره الخاصة فيما يرتبط بصحّة الإنسان، بعيداً عما تكشف التجربة جدواه، وتبرهن على فعاليته، والمرجع في ذلك هم أهل الخبرة، من الأطباء المختصين، وليس علماء الدين والفقهاء، فإذا وصف الطبيب دواءً للمريض ينبغي له الأخذ به، بل ربما وجب عليه ذلك، وإن لم يكن هذا الدواء وارداً في النصوص، كما لو أنّه نهاه عن استعمال دواء، لأنّه مضرٌّ بصحّته فعلى المريض اجتنابه، وإن كان وارداً في النصوص والروايات.

الأئمة R يراجعون الأطباء

وإنّ خير دليل على صحّة ما ذكرناه، من أنّه لا تعبّد في قضايا الطب، لجهة استعمال الدواء أو تشخيص الداء، هو ما جاء في سيرة النبي P و أهل بيتهR، فقد أمروا بالتداوي، لأنّ الذي خلق الداء خلق الدواء، ولم يسجّل التاريخ لهم موقفاً سلبياً من الطبّ والأطبّاء، بل كانوا أنفسهم يستدعون الأطباء للمعالجة أو يأذنون بذلك، ولا يمنعون منه إذا ابتُلوا هم أو أصحابهم ببعض الأمراض، ففي الحديث عن الإمام الصادقQ أنّ قوماً من الأنصار، قالوا: يا رسول الله، إنَّ لنا جاراً اشتكى بطنه، أفتأذن لنا أن نداويه؟ قال: بماذا تداوونه؟ قالوا: يهودي عندنا يعالج من هذه العلّة، قال: بماذا؟ قالوا: يشقُّ بطنه فيستخرج منه شيئاً، فكره ذلك رسول اللهP فعاودوه مرتين أو ثلاثاً، فقال: إفعلوا ما شئتم، فدعوا اليهودي فشقّ بطنه، ونزع منه رجرجاً كثيراً، ثم غسل بطنه ثم خاطه وداواه، فصحّ، فأُخبر النبيّP فقال: «إنّ الذي خلق الأدواء خلق لها دواء ...»[[96]](#footnote-96).

وفي الحديث أنّ عليّاًQ لما ضربه ابن ملجم بالسيف على رأسه «جُمع له أطباء الكوفة، فلم يكن منهم أحد أعلم بجرحه من أثير بن عمرو بن هاني السكوني، وكان مطبّباً صاحب كرسيّ يعالج الجراحات، وكان من الأربعين غلاماً الذين كان خالد بن الوليد أصابهم في عين التمر فسباهم، وإنّ أثيراً لما نظر إلى جرح أمير المؤمنينQ دعا برئة شاة حارة واستخرج عرقاً منها، فأدخله في الجرح، ثم استخرجه، فإذا عليه بياض الدماغ، فقال له: «يا أمير المؤمنين إعهدْ عهدك، فإنَّ عدوّ الله قد وصلت ضربته إلى أمّ رأسك، فدعا عليQ عند ذلك بصحيفة ودواة وكتب وصيّته..»[[97]](#footnote-97)

هكذا تأخّر المسلمون

وهكذا، فليس غريباً أن يتأخّر المسلمون في علم الطب، بعد أن كانوا روّاداً في هذا المجال، وأغنوا بمؤلّفاتهم التراث الطبّي في الشرق والغرب،كما يقول الدكتور فيليب حتي[[98]](#footnote-98)، ليس مستغرباً أن يتأخّروا، بعد أن سادت بينهم فكرة الطبّ التعبّدي، الذي يفتّش أصحابه عن طرق وأساليب المداواة في النصوص والروايات، بدل التعرّف على أسباب الأمراض وعوارضها، اعتماداً على التجربة والملاحظة الحسّية، ومن ثَمَّ يُعْمَل على اكتشاف مضادّاتها الحيوية، من خلال ما أودعه الله في هذا الكون الفسيح، من مكوّنات الشفاء وخصائصه.

وليس أقلّ غرابة من ذلك، انتشار فكرة التداوي بالتمائم والأحراز، أو سور القرآن الكريم، اعتماداً على نظرة خاطئة، وفهم مبتور لبعض الآيات والروايات التي تؤكّد على ضرورة اللجوء إلى الله سبحانه، وطلب العون منه، بما لا ينافي مبدأ الأسباب والمسببّات كما تقدّم.

وقد وصل الأمر ببعض الناس إلى حدّ الاستشكال في مراجعة الأطباء، لأنّ ذلك ـ بزعمهم ـ ينافي إخلاص التوحيد لله سبحانه، لأنّه هو الشافي والمعافي وبيده الأمور كلّها، مع أنّ من الواضح أنّ استعمال الدواء والرجوع إلى أهل الخبرة من الأطباء، لا ينافي كون الله هو الشافي، باعتبار أنّه تعالى هو الذي خلق خاصيّة الشفاء في الدواء، وهو علّة العلل.

نظرة تأملية في الروايات الطبية

وبعد هذا الكلام التأصيلي حول علاقة الوحي بالطب ،لا بد لنا أن نطل على تراثنا الإسلامي الذي يضمّ مجموعة وفيرة من الروايات الواردة عن النبي P والأئمة من أهل البيتR، وتتحدّث عن خصائص الأدوية والعقاقير، وكيفية التداوي بالأعشاب وغيرها، وبيان منافعها ومضارها، أو حول التداوي بالقرآن.. وقد أُلّفت في هذا الصّدد مصنّفات عديدة مثل كتاب طبّ الأئمّة لابن بسطام، وطـب الإمام الرّضـاQ المعـروف بالرسـالـة الذّهبيّـة، وطـبّ الإمام الصّادقQ [[99]](#footnote-99)، وكذا الطّب النبويّ لابن القيم الجوزية، إلى غير ذلك من العناوين والأسماء التي كثر تداولها مؤخّراً، وراج سوقها، كتابة وطباعة، وقراءة.

وفي تقييم عام وأوّلي لتراثنا الطبي يمكننا تصنيفه إلى عدّة مجاميع:

التداوي بالقرآن

المجموعة الأولى: هي الروايات التي تحثّ على المداواة بالقرآن وسوره وآياته، أو بالأدعية والأذكار والرقى والأحراز، وتَعتبر ذلك الأسلوبَ الناجعَ، وربما الوحيد في معالجة الأمراض، ويتبنّى هذا الاعتقاد بعض العلماء، ومنهم الشيخ الصدوق رحمه الله، حيث قال:

«وأمّا أدوية العلل الصحيحة عن الأئمةR، فهي آيات القرآن، وسوره، والأدعية على حسب ما وردت به الآثار بالأسانيد القوية والطرق الصحيحة»[[100]](#footnote-100).

ويعتمد أصحاب هذا الاعتقاد على ما ورد في الكتاب والسنة، مما يؤكّد أنّ الشفاء بيد الله تعالى كما في قوله سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾[الشعراء : 80]، وقوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً﴾[الإسراء : 82] .

ولكن هذا الاعتقاد غير دقيق بنظرنا، فالتداوي بآيات القرآن وسوره، أمر غير ثابت، ويفتقر إلى الدليل الصحيح، لأنّ قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء: 82]، لا يُراد به بحسب الظاهر أنّه عقار ودواء لأمراض الجسد، و إنّما هو شفاء لأمراض القلوب والأرواح، وأمراض المجتمع، فعن أمير المؤمنينQ: «إنّ في القرآن شفاءً من أكبر الداء، وهو الكفر والنفاق والبغي والضلال»[[101]](#footnote-101).

يقول العلامة الطباطبائي (رحمه الله) في تفسير الآية المتقدّمة:

«فالقرآن شفاء ورحمة للقلوب المريضة، كما أنّه هدى ورحمة للنفوس غير الآمنة من الضلال، وبذلك تظهر النكتة في ترتب الرحمة على الشفاء»، ويضيف: «فمعنى قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[الإسراء: 82] وننزل إليك أمراً يشفي أمراض القلوب ويُزيلها، ويُعيد إليها حالة الصحّة والاستقامة، فتتمتّع بنعمة السعادة والكرامة»[[102]](#footnote-102).

وأمّا الروايات الواردة في الاستشفاء بآيات القرآن الكريم، فهي بحسب التتبع ضعيفـة الإسنـاد، كما في مرسلة ابن سابور في طب الأئمةR، عن أبي عبد اللهQ «ما اشتكى أحد من المؤمنين شكاة قط، فقال بإخلاص نية، ومسح موضع العلّة: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلاَ يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إَلاَّ خَسَاراً﴾[الإسراء : 82] إلاّ عُوفيَ من تلك العلة، أية علة، ومصداق ذلك في الآية حيث يقول: ﴿شِفَاء وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾»[[103]](#footnote-103).

ثم لو صحّت هذه الروايات، فإنّ سبيلها سبيل الروايات الواردة في مسألة التداوي بالأحراز والرقى والعوذات، مما يأتي الحديث عنه في المجموعة الثانية.

التداوي بالأحراز

المجموعة الثانية: هي ما ورد حول التداوي بالأحراز والرقى والأدعية.. وقد نقلها العلماء في كتب الأدعية، فذكروا لكلّ داء رقية، ولكلّ وجع عوذة، وملاحظتنا الأساسية على هذه الروايات ـ مع صرف النظر عن أسانيدها ـ، أنّها لا ترمي إلى القول بارتباط الشفاء بشكلٍ مباشر بالأحراز أو الرقى أو العوذات ونحوها، بل تهدف إلى تأكيد مبدأ الارتباط بالله، واللجوء إليه في كلّ المصاعب والشدائد، وهذا الارتباط له تأثير بالغ في حصول الشفاء ولو بشكلٍ غير مباشر، لأنّ من الثابت علمياً والمشاهد بالعيان، أنّ الألم أو التوتّر النفسي الذي يصيب الإنسان بفعل الحزن والخوف والاضطراب والقلق، هو منشأ الكثير من الأمراض، كما أنّه يمكّن المرض من الفتك بجسم الإنسان، ما يجعل الدواء غير ذي جدوى، إلاّ إذا اقترن بتقبّل المريض لمرضه، وإنّ أفضل أسلوب يعتمده الإنسان في محاولة التغلّب على المرض، هو اللجوء إلى الله، والركون إلى حسن تدبيره وقضائه، ومن هنا تأتي هذه الأدعية والأحراز والعوذات، كغذاء روحي يبعث على الأمل والتفاؤل لدى المريض، ويحضّه على التسليم بما قسم له الله، مما يساعده على التوازن وعدم السقوط أمام المرض، أمّا أن يكون لها تأثير مباشر ومستقلّ في الشفاء، بعيداً عن قانون العلّية وعن الأخذ بالأسباب الطبيعية، فهذا أمر لا تساعد عليه الأدلّة، ولا هو ثابت إلاّ على نحو الكرامة، وهي حالة استثنائية ونادرة، كما أسلفنا.

الآداب الشرعية

المجموعة الثالثة: ما يندرج في سياق الآداب الشرعية والأخلاقية، وذلك من قبيل التسمية على الطعام، ففي الحديث عن الإمام عليQ في وصيّته لكميـل: «إذا أكلتَ الطعام فسمِّ باسم الذي لا يضرّ مع اسمه داء..»[[104]](#footnote-104)، أو من قبيل ما ورد في الحثّ على الأكل باليمين وأن يأكل المرء مما يليه، فعن رسول الله P مخاطباً أحدهم: «سَمِّ الله، وكُلْ بيمينك، وكُلْ مما يليك»[[105]](#footnote-105)، وكذا ما ورد في الحثّ على خلع النعال أثناء الطعام، فعن رسول الله P: «إخلعوا نعالكم عند الطعام، فإنّه سُنّة جميلة»[[106]](#footnote-106)، إلى غير ذلك من التعاليم ذات الطابع الأخلاقي، والتي يجدر بالمرء المسلم مراعاتها، لأنّها تندرج في سياق العادات الاجتماعية الحسنة، والسنن الإسلاميّة الطيّبة.

النصائح الطبّية

المجموعة الرابعة: ما يندرج ويصنّف في دائرة النصائح الطبية و الصحية العامة، من قبيل ما ورد عن رسول اللهP «المعدة بيت كلّ داء والحمية رأس كلّ دواء»[[107]](#footnote-107)، ورُويت هذه الحكمة عن عليQ[[108]](#footnote-108)، وقيل: إنّها من حكم الحرث بن كلـدة، طبيـب العرب المشـهـور[[109]](#footnote-109)، وكـذا مـا ورد عنـه P: «صوموا تصحّوا»[[110]](#footnote-110)، أو ما ورد عن علي Q من كلامه لابنه الإمام الحسنQ: «يا بنـي ألا أعلّمـك أربـع خصـال تستغنـي بها عـن الطـب؟ فقـال: بلـى يا أمير المؤمنين، قال: لا تجلس على الطعام إلاّ وأنت جائع، ولا تقم عن الطعام إلا وأنت تشتهيه، وجوّد المضغ، وإذا نمت فاعرض نفسك على الخلاء...»[[111]](#footnote-111)، أو ما ورد في الحثّ على غسل اليدين قبل الطعام وبعده، ففي الحديث عن أمير المؤمنينQ: «غسل اليدين قبل الطعام وبعده زيادة في العمر، وإماطة للغمر (الغمر: ريح اللحم ودسومته) عن الثياب، ويجلو البصر»[[112]](#footnote-112).. إلى غير ذلك من الوصايا ذات الطابع الوقائي، مما أثبتت التجربة صحّتها، وأكّدها أهل الاختصاص، وهذه المجموعة لا تثير إشكالية في المقام، بل هي تشكّل شاهد صدق لصالح الرسول P والرسالة.

الروايات العلاجية

المجموعة الخامسة: هي الروايات التفصيلية ذات الطابع العلاجي والتي تقدِّم وصفات طبية لمختلف الأمراض، وهي تبلغ المئات، وربما لامست حدود الألف[[113]](#footnote-113)، ويندرج في هذه المجموعة ما ورد بشأن خواص الأطعمة والأشربة والفواكه والأعشاب.

وهذه المجموعة بحاجة إلى دراسة توثيقية موضوعية تحليلية، بهدف غربلتها، ووضعها في نصابها الصحيح، وهذه الدراسة وإن لم يسع المقام للقيام بها بشكلٍ تفصيلي، فإنّنا نقتصر على تسجيل ملاحظتين أساسيتين، وإذا ما أُضيف إليهما ملاحظة ثالثة وهي ما تقدّم في فقرة «المفيد وتوقيفية الطب»، فسوف يتّضح الموقف في التعامل مع هذه الأخبار.

بين مشرحتَيْ علم الطب وعلم الرجال

وأوّل ملاحظة أو خطوة على هذا الصعيد هي عرضها على مشرحة علم الرجال، لتقييم أسانيدها ومعرفة ما يصحّ منها وما لا يصحّ، وإنَّ دراسةً كهذه لم تحصل لحدِّ الآن، رغم أنّها ضرورية، خاصة مع ملاحظة حصول الوضع والكذب في الروايات الطبية، كما سيأتي الاعتراف بذلك من أحد كبار العلماء المطّلعين على الأخبار والمصنّفين فيها، عنيت بذلك الشيخ الصدوق (رحمه الله)، لكنّ الشائع عند العلماء عدم الاهتمام بأسانيد هذه الروايات، وأمثالها مما لا ربط له بالحكم الشرعي، وفقاً لقاعدة التسامح في أدلّة السنن، يقول العلامة المجلسي وهو يقيّم مصادر كتابه بحار الأنوار، تعليقاً على كتاب طب الأئمة:

«إنّه ليس في درجة سائر الكتب لجهالة مؤلّفه ولا يضرّ ذلك، إذ قليل منه يتعلّق بالأحكام الفرعية، وفي الأدوية والأدعية لا نحتاج إلى الأسانيد القوية»[[114]](#footnote-114).

لكن الملاحظة التي يمكن تسجيلها هنا: أنّ قاعدة التسامح المذكورة غير ثابتة، بل ثبت وَهْنُها في علم الأصول، هذا من جهة، ومن جهة أخرى، فإنّ الروايات الطبّية وإنْ لم ترتبط بالعمل والسلوك، لكنّها ترتبط بصحّة الإنسان، مما لا يصحّ التساهل فيها وتعريضها للمخاطر، فلا يسوغ وضع الأحاديث العلاجية ـ قبل توثيقها ـ في متناول عامة الناس، كوصفات وإرشادات طبّية، خوفاً من آثارها السلبية المحتملة.

ثم إنّ دراسة السند في المقام لا تكفي، بل لا بدّ أن تتبعها خطوة أخرى، تعمل على دراسة المضمون أيضاً، لأنّ التعبّد لا معنى له في الروايات الطبّية، وربما كان الأسلوب الأجدى في دراسة المضمون، هو عرضه على مشرحة علم الطب، استناداً إلى الحقائق والمعطيات الطبّية الثابتة، فإنّ المعصوم لا يتكلّم بما يخالف الحقائق التكوينية، لأنّه يصدر عن نبع صافية.

ومن الأحاديث التي يرى بعضهم أنّها مخالفة للمعطيات العلمية اليقينية: ما رواه أبو هريرة عن رسول اللهP: «إذا وقع الذباب في شراب أحدكم فليغمسه ثم لينزعه، فإنّ في أحد جناحيه داءً وفي الآخر شفاء»[[115]](#footnote-115).

ومما يخالف المعطيات الطبّية الثابتة واليقينية: ما ورد في بعض الأحاديث من نفي العدوى وتأثيرها، فقد روي عنه P: «لا عدوى ولا طيرة ولا هامة..»[[116]](#footnote-116)، فهذا الخبر وأمثاله إن لم يتمّ توجيهه وحمله على بعض المحامل، فلا بدّ من التوقّف بشأنه وردّ علمه إلى أهله، لمنافاته لما هو محسوس وبديهي في علم الطبّ من واقعية العدوى، ولذا يتمّ الحَجْرُ الصحّي على المصاب بالأمراض المعدية، كما أنّه يتنافى مع ما ورد عن النبي P ممّا يؤكد واقعية العدوى، كقوله P: «فرّ من المجذوم فرارك من الأسد»[[117]](#footnote-117)، أو قوله لأصحاب الإبل: «لا يورد ممرض (أي ذو عاهة) على مصح»[[118]](#footnote-118)، وقد تعرّضت لهذا الأمر في كتاب «الإسلام و البيئة» فليراجع.

النطاق الزمني للروايات

والخطوة الثانية في المقام بعد دراسة السند والمتن، هي ملاحظة مدى الإطلاق في هذه الروايات، وصلاحيتها لإعطاء قاعدة عامة لكلّ الأشخاص ولمختلف الأمكنة والأزمنة، وقد تنبّه الشيخ الصدوق لهذا الأمر، وتحدّث في كلام له عن تعرّض التراث الطبّي للوضع والدسّ، وأنّ بعضه وارد في نطاق محدود ولا يشكّل قاعدة عامّة، قال رحمة الله في كلام هام يعكس قدم الإشكالية في التراث الطبي:

«اعتقادنا في الأخبار الواردة في الطبّ أنّها على وجوه:

منها: ما قيل على هواء مكة و المدينة، فلا يجوز استعماله في سائر الأهوية، ومنها: ما أخبر به العالم على ما عَرَفَ من طبْع السائل، ولم يتعدَّ موضعه، إذ كان أعرف بطبعه منه، ومنها: ما دلّسه المخالفون في الكتب، لتقبيح صورة المذهب عند الناس، ومنها: ما وقع فيه سهو من ناقله، ومنها: ما حُفِظَ بعضه ونُسِيَ بعضه...»[[119]](#footnote-119).

ولم يسع المفيد في تصحيح الاعتقاد، وعلى خلاف عادته إلاّ موافقة الصدوق فيما قاله، وإن أضاف إليه إضافة هي محل إشكال، كما سلف.

\* \* \*

وفي الختام

كانت هذه بعض المفاهيم المتشكّلة خارج الفضاء الديني والتي تم إلباسها لبوساً دينياً، إما جهلاً وبحسن نية، وإما خبثاً وعن سوء نية، وعلى التقديرين، فإنّ المسؤولية الشرعية أمْلت عليناـ بمقدار فهمنا لنصوص الدين ومقاصده ـ أن نبذل الجهد في سبيل تنزيه ساحة الدين من تبعات هذه المفاهيم والعادات وتحريره من أوزارها، لأنّ الدين ـ باعتباره رسالة إيمان وعمل صالح ـ إنما يتوسّل إلى بلوغ أهدافه النبيلة الأساليب النظيفة ولا يقرّ الأساليب الملتوية، ويعتمد الصدق والشفافية لا الخداع والتمويه.

وإنّي لأستميح القارئ الكريم عذراً على ما قد يجده من قسوة في نقدي لمثل هذه الأفكار المزوّرة والعادات البالية، فتلك غضبة مكلوم ونفثة مصدوم هالَهُ أن يرى أمّته لا تزال مَرْتَعاً خصباً لتلك الأفكار المعطِّلة للطاقات والمفاهيم المعيقة لتطوّر الإنسان، وذلك على الرغم من مرور أربعة عشر قرناً على بعثة رسولنا الكريمP، برسالته الخاتمة التي نصّت على تكريم الإنسان وأعْلت من مكانة العقل، ورفضت الاتجار بالدين ، وحاربت كلّ أشكال الدّجل والتضليل والتجهيل.

أسأل الله العليّ القدير أن يُلهمنا الخير والعمل به وأن يبصّرنا في ديننا ويفقّهنا في شريعته وأن يسدّد خطانا ويوفّقنا لنصرة الحقّ وإعزازه وانتقاص الباطل وإذلاله وحياطة الإسلام . إنّه ولي التوفيق.

ملحق

يقول ول ديورانت في موسوعته الشهيرة «قصة الحضارة»[[120]](#footnote-120):

وإذا أردنا أن نلخّص الآن العلم والتربية والفلسفة في غرب أوروبا إبان القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فيجب أن نتذكّر أنّ الدراسات العقلية كان عليها أن تحارب من أجل الحصول على التربية والهواء في غابة من الخرافة والتعصّب والخوف. وبين أحداث القحط والطواعين والحروب، وفي الفوضى الضاربة على البابوية الشاردة والمنقسمة على نفسها بحث الرجال والنساء في القوى الخفية عن بعض التفاسير لما ينزل بالإنسانية من شقاء خفيّ وعن قوّة سحرية ما تتحكّم في الأحداث، وعن ضرب من الفرار الصوفي من الواقع المرير، وسارت حياة العقل متعثّرة في وسط من العرافة والسحرة واستحضار الأرواح وقراءة الكفّ وفراسة الدماغ والاستنباء بالعدد والعيافة والطيرة والتنبؤ وتفسير الأحلام وطوالع النجوم والتحويل الكيميائي للمواد والعلاج بالخوارق وللقوى الخفية في الحيوان والمعدن والنبات. ولا تزال هذه الأعاجيب حيّة في أعطافنا اليوم. وتظفر هذه أو تلك منها بالولاء الصريح أو الخفيّ من كلّ واحد منّا تقريباً ولكن تأثيرها الحالي في أوروبا اليوم أقلّ بكثير من سلطانها في العصور الوسطى..

ولم تُدرس النجوم من أجل هداية السفن أو تحديد المواسم الدينية فحسب وإنّما دُرِست من أجل التنبّؤ بما يقع على الأرض من أحداث وما يُخبّأ للأشخاص من مصير. ويبدو أنّ التأثير النافذ للمناخ والفصول وعلاقة المدّ والجزر بالقمر والتوقيت القمري للطمث عند المرأة واعتماد الزراعة على أحوال السماء وكيفياتها، إنّما تبرّر مزاعم التنجيم بأنّ سماء اليوم تكشف عن أحداث الغد. وكانت أمثال هذه التنبؤات تُنشر بانتظام (كما هو الحال الآن) وتبلغ جمهوراً كبيراً متعطّشاً لها. ولم يكن الأمراء يجسرون على القيام بحملة أو واقعة أو رحلة أو تشييد بناء إلا إذا حصلوا على تأكيد من المنجّمين بأنّ النجوم في أوضاع ملائمة لهذه الأغراض. ولقد حرص هنري الخامس ملك إنجلترا على الاحتفاظ بإسطرلاب ليرسم خريطة السماء، ولما جاء زوجته المخاض قرأ بنفسه طالع الطفل وكان بلاط متياس كورفينوس الذي يضم صفوة المثقفين يرحب بالمنجّمين ترحيبه بعلماء الإنسانيات.

واعتقد الناس أنّ الملائكة تهدي النجوم، وأنّ الهواء يزخر بالأرواح الخفية، بعضها من الجنّة وبعضها من الجحيم. وسكنت العفاريت كلّ مكان وبخاصة مخدع الإنسان، وينسب إليها بعض الرجال ما يسلب منهم بالليل كما نسب إليها بعض النساء ما يصيبهن في غير أوانه، وأجمع علماء الدين على أنّ أمثال تلك الخطيات الخبيثات لهنّ وجود حقيقي ويستطيع كلّ امرئ ساذج في كلّ منعطف وكلّ لحظة أن يخرج من عالم الحسّ إلى مملكة من الكائنات والقوى المسحورة. ولكلّ شيء طبيعي صفات خارقة. وكانت كتب السحر من أرْوَج الكتب في ذلك العصر. ولقد عُذّب أسقف كاهورز وجُلِد وأُلقي به في المحرقة (1317) بعد أن اعترف بأنّه أحرق تمثالاً من الشمع للبابا يوحنا الثاني والعشرين آملاً أن يلقى الأصل مصير الشمع، كما وعد بذلك فنّ السحر. واعتقد الناس أن فطير القربان بتقديس القسيس ينزف دم المسيح إذا خدش.

وخبت شهرة الكيماويين، ولكنهم استمروا في أبحاثهم الأمينة وخدعهم البراقة على السواء وفي الوقت الذي أنكرتهم فيه المراسيم الملكية والبابوية فقد أقنعوا بعض الملوك بأنَّ الكيمياء قد تفعم الكنوز متى نضبت. وكان السذج يبتلعون «الذهب المذاب» الذي أكّد لهم أنّه يشفي كلّ شيء إلا الغفلة (ولا يزال المرضى والأطباء يتعاطون الذهب في علاج داء المفاصل)..

ونافس علم الطب في كلّ خطوة من خطواته، التنجيم وعلوم الدين والدجل. ونسب الأطباء تقريباً تشخيص مرض من الأمراض إلى البرج الذي وُلد أو مرض فيه المريض، وهكذا كتب الجراح العظيم جي ده شولياك (1363): «إذا جُرح امرؤ في عنقه والقمر في برج الثور، فالإصابة خطيرة» ومن أقدم الوثائق المطبوعة، تقويم نشر في منيز (1462) يبيّن أحسن الأوقات من ناحية طوالع النجوم لفصد الدم. ونسبت الأوبئة بين جمهرة الناس إلى اجتماع سيئ الطالع بين النجوم. وأرجح ملايين المسيحيين، الشفاء إلى العقيدة وربما كان ذلك لخيبة أملهم في الطب. وذهب آلاف إلى ملوك فرنسا وإنجلترا يستشفون من الدرن الخنزيري بلمسة ملكية ويبدو أنَّ هذه العادة قد بدأت بلويس التاسع الذي أدّت قداسته إلى الاعتقاد بقدرته على عمل المعجزات. وظنّ الناس أنّ قوّته، قد انتقلت منه إلى خلفائه، كما انتقلت عن طريق إيزابلا أميرة فالوا، وهي أم إدوارد الثالث، إلى ملوك إنجلترا. وحجّ آلاف أكثر إلى أضرحة تشفي المرض؛ وحوّلوا بعض القديسين إلى أطباء متخصّصين، وهكذا اكتظّت كنيسة القديس فينوس بالمصابين بداء الرقص الزنجي، إذ ساد الاعتقاد بأنّ هذا القديس متخصّص في علاج هذا المرض وأصبح قبر بييرده لكسمبورج، وهو كاردينال مات في الثانية عشرة من عمره بسبب غلوائه في الزهد، مزاراً محبّباً، ونسب شفاء ألف وتسعمائة وأربعة وستين شخصاً إلى قدرة عظامه السحرية، وذلك في خلال خمسة عشر شهراً من وفاته. وراجت صناعة الدجّالين، ولكن القانون بدأ يقاومهم. ففي عام 1382 حكم على روجر كليرك، الذي ادّعى علاج المرضى بالرقيّ، أن يسير في شوارع لندن راكباً وقد علقت المباول حول عنقه.

واعتقد معظم الأوربيين في السحر، أو بعبارة أخرى، في قوة بعض الأشخاص على التحكّم في الأرواح الشريرة والحصول على معاونتها. لقد كانت القرون المظلمة متنوّرة نسبياً في هذه الناحية. ولقد أنكر القديسان بونيفاس وأجوبارد الاعتقاد في السحر باعتباره ذنباً وعملاً يوجب السخرية، وجعله شارلمان جريمة يُعاقَب مقترفها بالإعدام وكان يشنق كلّ شخص يُتّهم بصناعة السحر، وحرم البابا جريجوري السابع هلديبراند، على محكمة التفتيش، أن تحاكم السحرة على أنّهم السبب في العواصف والطواعين ولكن تأكيد الوعاظ لحقيقة جهنّم ومكائد إبليس أذكى الاعتقاد الشعبي في وجود الشيطان وشرّه في كلّ مكان أو وجود أحد أعوانه، وكم من عقل مريض أو نفس يائسة اعتصمت بفكرة استحضار أمثال هذه الشياطين لمعاونتها. واتّهم بالسّحر أنواع شتّى من الناس، يدخل فيهم البابا بونيفاس الثامن. ولقد شُنق الرجل الأرستقراطي أنجراند ده ماريني بتهمة السحر عام 1315، وأمر البابا جون الثاني والعشرون عام 1317 بقتل عدد من الأشخاص غير المعروفين، لأنهم دبّروا اغتياله مستعينين بالشياطين. وأنكر جون مراراً الالتجاء إلى الشياطين وأمر باضطهاد من يقترفه، وفرض العقوبات عليه، ولكن الناس فسّروا مراسيمه بأنّها تؤيّد اعتقادهم في وجود القوى الشيطانية وإمكان الانتفاع بها. وتضاعف الاتهام بالسحر بعد عام 1320، وشُنق كثير من المتّهمين أو ألقي بهم في المحرقة. وساد في فرنسا الرأي القائل بأنّ شارل السادس قد أُصيب بالجنون بوسائل سحرية، واستخدم ساحران لإعادة العقل إليه، فلما أخفقا جُزَّ رأساهما (1397).

وفي عام 1397 أصدرت كلية الدين بجامعة باريس، ثماني وعشرين مقالة تحرم السحر، وإن اعترفت بقدرته بين حين وآخر. وعدّ قاضي القضاة جرسون أن من الهرطقة أن يناقش المرء وجود الشياطين أو نشاطها.

أما الكهانة فهي ممارسة السحر بوساطة أشخاص نسبوا إلى عبادة إبليس باعتباره كبير الشياطين الذين يعملون على استخدامها في اجتماعات ليلية أو سبتية. ويذهب الاعتقاد الشعبي إلى أن السحرة، وأغلبيتهم من النساء يزودون بقوى خارقة في مقابل عبادتهم لإبليس. وانتدابهم على هذا الوجه يجعلهم يسيطرون على النواميس الطبيعية، ويجلبون النحس أو الموت لمن يريدون. وأيّد علماء أمثال أراومس وتوماس مور وجود الكهانة في الواقع، وشك فيها بعض القسس في كلونيا، وأيدت وجودها جامعة كلونيا. وزعم معظم رجال الكنيسة ـ ويوافقهم في ذلك بعض المؤرخين من غير رجال الدين إلى حدٍّ ما ـ أن الاجتماعات السرية بالليل إنما هي تعلات لعلاقات جنسية مختلطة ولتحريض الشباب على الفسق، واعترف بعض السحرة اعترافاً مزعوماً أو بالأعمال الشريرة التي أُسندت إليهم، وذلك إما بوساطة وهم مخبول، وإما للتخلص من التعذيب، ولعل هؤلاء السحرة الشعبيين قد قاموا بما يشبه التحذير النهائي لمسيحية مثقلة، وبنزعة ترفيهية من ناحية ومتمردة من ناحية أخرى لعبادة إبليس باعتباره العدو القوي لإله يحكم على كثير من المباهج بالكبت ويلقى بكثير من الأرواح في الجحيم، وقد تذكر هذه الشعائر الخفية وتؤكد من جديد العقائد في الأعياد الوثنية لآلهة الأرض والحقل والغابة الخاصة بالتناسل والإخصاب أمثال باخوس وبريابوس وسيريس دفلورا.

واجتمعت جهود الأوساط المدنية والدينية على قمع ما رأوه أكبر فساد وكفر. وانتدب عدد من البابوات ـ في الأعوام 1374 و1409 و1447 و1451 وبخاصة البابا إنوسنت الثامن عام 1484 ـ عملاء في محكمة التفتيش للتصرف مع السحرة باعتبارهم هراطقة منبوذين، تصيب جرائمهم ووسائلهم الثمرات والأرحام بالأذى، وقد تحول مزاعمهم جماعات بأسرها إلى الشيطنة واعتمد البابوات اعتماداً حرفياً على آية في سفر الخروج (الإصحاح 22: الآية 18) «لن تترك ساحرة تعيش». ومع ذلك فإن المجالس الكنسية قبل سنة 1446 كانت تكتفي بالعقوبات المعتدلة إلا إذا كان المذنب السابق المعفو عنه قد عاد إلى سابق إجرامه. ولقد أحرقت محكمة التفتيش عام 1446، عدداً من السحرة في هيلدلبرج، وأحرقت عام 1460 اثني عشر رجلاً وامرأة في أراس، وأطلق عليهم الفودوا كما أطلق على الهراطقة (waldenses) وقام السحرة في فرنسا برحلة عبر الأطلنطي حتى أطلقت كلمة فودوويزم voodooism على سحر الزنوج في المستعمرات الفرنسية في أميركا. وفزع جاكوب سبرنجر قاضي محكمة التفتيش الدومينيكي فزعاً شديداً من انتشار السحر فأصدر عام 1487 دليلاً رسمياً لمطاردة السحرة عنوانه: «مطرقة السحرة». وقدم مكسميليان الأول وكان إذ ذاك ملك الرومان لهذا الدليل برسالة تقريظ قال فيها أعظم أثر هائل ضد الخرافة أنتجه العالم. وقال سبرنجر إن هؤلاء النسوة الشريرات بتقليب خميرة شيطانية في قدر أو بوسائل أخرى، يستطعن إحضار أسراب من الجراد والديدان لتلتهم محصولاً كاملاً، وهن يستطعن أن يصبن الرجال بالعقم ويجعلن النساء عقيمات، ويغضن لبن المرضع أو يجهضن الحامل، ويستطعن بنظرة واحدة فقط أن يجلبن الحب أو الكراهية، المرض أو الوفاة. ويخطف بعضهن الأطفال ويشوينهم ويأكلنهم. ويستطعن رؤية الأشياء عن بعد ويتنبأن بالجو، وفي إمكانهن أن يحولن أنفسهن أو غيرهن إلى حيوانات، وختم بحثه بقوله إن ذلك لأنَّ النساء أخفّ رؤوساً وأكثر شهوة من الرجال، وأضاف أنهن، إلى هذا كلّه، وسائل محبوبة دائمة لإبليس. ولقد أحرق ثماني وأربعين منهن في مدى خمس سنوات. ومنذ عهده، زاد هجوم رجال الدين على صناعة السحر حتى بلغ أوجه في القرن السادس عشر، في كنف الكاثوليك والبروتستانت على السواء، وبهذا الضرب من العنف الهائل تفوّقت الأزمنة الحديثة، على العصور الوسطى. وفاخر أحد موظفي محكمة التفتيش عام 1554، بأن محكمة التفتيش، قد أحرقت ثلاثين ألفاً من السحرة على الأقل، وإذا تركوا بلا عقاب فقد ينزلن الخراب بالعالم كله.

ولقد ألّفت كتب كثيرة في هذا العصر لمحاربة الخرافات وتحتوي كلها على خرافات. ووجه أجوستينو ترينفو إلى البابا كلمنت الخامس، رسالة ينصحه أن يحرم السحر الخفي ولكن ترينفو رأى أن الطبيب لا يغتفر له أن يجري فصاداً في مراحل معينة من أوجه القمر. ووجه البابا جون الثاني والعشرون ضربات قاسية للكيمياء (1317) والسحر (1337)، ونعى ما ظنه انتشاراً متزايداً لتقديم القرابين إلى الشياطين، وأخذ العهود على إبليس وصناعة التماثيل والخواتم والأمزجة للأغراض السحرية، وأصدر قراراً تلقائياً بالحرمان ضد جميع الذين يمارسون هذه القوانين، ولكنه أضمر اعتقاداً في قدرتها.

وكان نيقولا أرزم هو الخصم العنيد للتنجيم في ذلك العصر، وقد توفي وهو أسقف ليزيوه عام 1382. وسخر من المنجمين، الذين لا يستطيعون تحديد جنس الطفل قبل ولادته وإن زعموا أنهم يستطيعون التنبؤ بمصيره على الأرض بعد ولادته، وقال أرزم إنّ مثل هذه الطوالع حكايات يسردها الزوجات العجائز وكتب مردّداً عنوان شيشرون وجهده قبل ذلك بأربعة عشر قرناً عن: «قراءة الغيب» في الرد على مزاعم العرافين ومفسري الأحلام وأمثالهم. ولقد سلّم وسط شكه في العلوم الخفية بصفة عامة، بأن الأحداث يمكن أن تفسر بأنها من عمل الشياطين أو الملائكة. وقبل فكرة «عين الحسود». وظن أن المجرم يعتم المرآة بنظره فيها. وأن نظرة الوشق قد تخترق الحائط. واعترف بالمعجزات التي في الكتاب المقدس، ولكنه رفض التفسيرات الخارقة إذا كانت العوامل الطبيعية تكفي للتفسير وقال نيقولا: إن كثيرين من الناس يصدقون السحر لأنهم يفتقرون إلى معرفة العلل والتطورات الطبيعية. وهم يقبلون بالسماع ما لم يروه، ولذلك قد تصبح أسطورة ـ مثل ساحر يتسلق حبلاً ألقى به في الهواء ـ عقيدة شائعة (وهذه هي أول رواية تذكر فيها أسطورة تسلق الحبل) واحتج أرزم تبعاً لذلك بأن انتشار عقيدة ما ليس دليلاً على صدقها بل إذا شاهد كثير من الناس حادثة تناقض تجربتنا العادية للطبيعة فيجب أن تتردد في تصديقهم. يضاف إلى ذلك أن الحواس من السهل خداعها فإن ألوان الأجسام وأشكالها وأصواتها تختلف تبعاً لمسافة أعضاء الحواس وأضوائها وحالاتها، والجسم وهو ساكن قد يبدو متحرّكاً، والتحرّك قد يبدو ساكناً، وتبدو قطعة النقود الموضوعة في قاع قنينة مملوءة بالماء، أبعد منها في قنينة فارغة. ويجب أن تفسّر الأحاسيس بالفعل، وهذا أيضاً عرضة للخطأ. ويقول أرزم، إنَّ خدع الحواس والفعل تفسّر كثيراً من الأعاجيب التي تنسب إلى القوى الخارقة أو السحرية.

وعلى الرغم من هذا التقدّم الجريء نحو الروح العلمي، فإنّ الخرافات القديمة بقيت أو عدّلت أشكالها فحسب. ولم تكن مقصورة على الدهماء فقد دفع إدوارد الثالث ملك مبلغاً باهظاً من المال للحصول على قارورة، كان على يقين من أنّها من مخلّفات القديس بطرس وعرضت على شارل الخامس ملك فرنسا في سانت شابل قارورة، قيل إنّها تحوي بعض دمّ المسيح وسأل حكماءه وعلماء الدين عنده عن صحّتها، فردّوا متحفّظين بالإيجاب. وفي هذا الجو جاهدت التربية والعلم والطب والفلسفة لتنمو.

المصادر والمراجع

1 ـ القرآن الكريم.

2 ـ ابن سينا، الحسين بن عبد الله، (370 ـ 427هـ)، الإشارات والتنبيهات، تحقيق: الدكتور سليمان دينا، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، لا.ط، 1968م، ج4.

3 ـ الأنصاري، الشيخ مرتضى،(ت1281هـ)، المكاسب المحرمة، تحقيق: لجنة تراث الشيخ الأعظم، قم ـ إيران، ط1، 1415هـ.

4 ـ ابن الأثير،المبارك بن محمد الجزري، (ت606هـ)، النهاية في غريب الحديث، مؤسسة إسماعيليان للطباعة والنشر والتوزيع، قم ـ إيران، ط4، 1364هـ.ش.

5 ـ ابنا بسطام، عبد الله والحسين بن سابور الزيات النيسابوري، طب الأئمة، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ط1، 1965م.

6 ـ الإحسائي، ابن جمهور، عوالي اللآلي، تحقيق: الشيخ مجتبى العراقي، مطبعة سيد الشهداء، قم ـ إيران، ط1، 1983م.

7 ـ ابن حنبل، الإمام أحمد، مسند أحمد، دار صادر، بيروت ـ لبنان، لا.ط، لا.ت.

8 ـ أبو رية، الشيخ محمود، شيخ المضيرة أبو هريرة، دار الذخائر للمطبوعات، قم ـ إيران، ط1، 1368 هـ. ش.

9 ـ الأصفهاني، علي بن الحسين الأموي المعروف بأبي الفرج الأصفهاني، مقاتل الطالبين، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف، ط1، 1965م.

10 ـ الأسمـر، راجي، إصابـة العين، حقيقتها، الوقاية منها، علاجها، جروس برس، طرابلس ـ لبنان، لا.ط، لا.ت.

11 ـ ابن طاووس، علي بن موسى، (ت 664)، الدروع الواقية، مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، قم ـ إيران، ط1، 1414هـ.

12 ـ ابن ماجة، محمد بن يزيد القزويني، (ت275هـ)، سنن ابن ماجة، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، لا.ط، لا.ت.

13 ـ ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، نشر أدب الحوزة، قم ـ إيران، 1405هـ.

14 ـ أمين، أحمد، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، ط10، لا.ت.

15 ـ البحراني، الشيخ يوسف، (ت 1186هـ)، الحدائق الناضرة في أحكام العترة الطاهرة، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، لا.ت.

16 ـ البحراني نفسه، الكشكول ،مكتبة نينوى، طهران ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

17 ـ البخاري، محمد بن إسماعيل، (ت 256هـ)، صحيح البخاري، دار الفكر، بيروت ـ لبنان، لا.ط، 1981م.

18 ـ برنس، موسى، الخط الأحمر، الناشر: مؤلفون، لبنان 1983م.

19 ـ البرقي، أحمد بن محمد بن خالد، (ت 374هـ)، المحاسن، تصحيح وتعليق: السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، لا.ط، 1370هـ.

20 ـ البيهقي، أحمد ابن الحسين بن علي، (ت458هـ)، السنن الكبرى، دار الفكر.

21 ـ الترمذي، محمد بن عيسى، (ت279هـ)، سنن الترمذي، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت ـ لبنان، ط2، 1983م.

22 ـ التنكابني، محمد بن سليمان، قصص العلماء، ترجمة: الشيخ مالك وهبي، ذوي القربى، قم ـ إيران، ط2، 1429هـ.

23 ـ التوحيدي، محمد علي، مصباح الفقاهة، تقريراً لأبحاث السيد أبي القاسم الخوئي، مكتبة الداوري، قم ـ إيران، ط1، لا، ت.

24 ـ الجرجاني، الشريف علي ابن محمد، (ت812هـ)، شرح المواقف، الشريف الرضي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

25 ـ حتي، الدكتور فيليب، موجز تاريخ الشرق الأدنى.

26 ـ الحر العاملي، محمد بن الحسن، (ت 1104هـ)، وسائل الشيعة، تحقيق مؤسسة آل البيت لإحياء التراث، قم ـ إيران، ط2، 1404هـ.

27 ـ الحر العاملي، الفصول المهمة في أصول الأئمّة (عليهم السّلام)، بصيرتي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

28 ـ الحراني، الحسن بن علي بن الحسين بن شعبة(القرن الهجري الرابع)، تحف العقول عن آل الرسول، تحقيق: علي أكبر غفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، ط2، 1402هـ.

29 ـ الحوالي، الشيخ الدكتور سفر، منهج الأشاعرة في العقيدة.

30 ـ الخشن، حسين، من حقوق الإنسان في الإسلام،دار المحجة البيضاء، بيروت ـ لبنان، ط2، 2007م.

31 ـ الخشن، حسين، الشريعة تواكب الحياة، دار الهادي، بيروت ـ لبنان، ط1، 2004م.

32 ـ الخوئي، السيد أبو القاسم، صراط النجاة، (استفتاءات)، جمع: الشيخ موسى عاصي، دفتر نشر بركزيده، قم ـ إيران، ط1، 1416هـ.

33 ـ الدارمي، عبد الله بن بهران، (ت255هـ)، سنن الدارمي، مطبعة الاعتدال، دمشق، 1349هـ.

34 ـ الدميري، محمد بن موسى، (742 ـ 808هـ)، حياة الحيوان الكبرى، انتشارات ناصر خسرو، طهران ـ إيران، ط3، 1368.

35 ـ ديورانت، ول وايرل، قصة الحضارة، دار الجيل، بيروت ـ لبنان.

36 ـ الرازي، محمد بن عمر المعروف بالفخر الرازي، (ت 606هـ)، التفسير الكبير، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط3، لا.ت.

37 ـ شلتوت، محمود، (شيخ الأزهر)، الفتاوي، دار الشروق، القاهرة، ط15، 1988م.

38 ـ الشوكاني، محمد بن علي، (ت1255هـ)،نيل الأوطار من أحاديث سيد الأخيار، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، 1973م.

39 ـ الشيرازي، صدر الدين محمد، المعروف بصدر المتألهين، (ت 1050هـ)، الحكمة المتعالية في الأسفار العقلية، دار إحياء التراث العربي، بيروت ـ لبنان، ط2، 1981م.

40 ـ الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن الحسين بن بابويه (ت 381هـ)، من لا يحضره الفقيه، تحقيق: علي أكبر الغفاري، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

41 ـ الصدوق، علل الشرايع، المكتبة الحيدرية، النجف الأشرف ـ العراق، لا.ط، 1966م.

42 ـ الصدوق، الخصال، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، لا.ط، 1403هـ.

43 ـ الصدوق، التوحيد، تحقيق: السيد هاشم الحسيني الطهراني، مؤسسة النشر الإسلامي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

44 ـ الصدوق، الأمالي، مؤسسة البعثة، قم ـ إيران، ط1، 1417.

45 ـ الصدوق، الاعتقادات في دين الإمامية، تحقيق: عصام عبد السيد، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان،ط2، 1993م.

46 ـ الطبرسي، أحمد بن علي، (القرن الهجري السّادس)، الاحتجاج، دار النعمان، النجف الأشرف، لا . ط، 1966م.

47 ـ الطباطبائي، السيد محمد حسين ،الميزان في تفسير القرآن، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، ط2، 1972م.

48 ـ الطبرسي، الفضل بن الحسن، (القرن الهجري السّادس) تفسير مجمع البيان، مؤسسة الأعلمي، بيروت ـ لبنان، ط1، 1995م.

49 ـ الطوسي، محمد بن الحسن، المعروف بالشيخ الطوسي، (ت 460هـ)، التبيان، مكتب الإعلام الإسلامي، قم ـ إيران، ط1، 1409هـ.

50 ـ الطوسي، محمد بن الحسن، مصباح المتهجد، مؤسسة فقه الشيعة، بيروت ـ لبنان، ط1، 1991م.

51 ـ الطوسي، تهذيب الأحكام، تحقيق: السيد حسن الخرسان، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ط3، 1364هـ.

52 ـ الطهراني، آغا بزرك الطهراني، الذريعة إلى تصانيف الشيعة، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، ط2، لا.ت.

53 ـ العجلوني، إسماعيل بن محمد، (ت1162هـ)، كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، ط2، 1998م.

54 ـ علي، جواد، المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام، الشريف الرضي، قم ـ إيران، ط1، 1380 هـ.ش.

55 ـ فضل الله، السيد محمد حسين، تأملات في آفاق الإمام موسى الكاظم، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ـ لبنان، لا.ط، لا.ت.

56 ـ كاشف الغطاء، الشيخ جعفر (ت 1228هـ)، كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء، تحقيق: مكتب الإعلام الإسلامي، مكتب الإعلام الإسلامي، مشهد ـ إيران، ط1، 1422هـ.

57 ـ الكليني، محمد بن يعقوب (ت 329)، الكافي، تحقيق: علي أكبر الغفاري، دار الكتب الإسلامية، طهران ـ إيران، ط5، 1363هـ.

58 ـ المتقي الهندي، علاء الدين علي بن حسام الدين، (888 ـ 975)، كنـز العمال في سنن الأقوال والأفعال، تحقيق: بكري حيَّاني وصفوة السّقا، مؤسسة الرسالة، بيروت ـ لبنان، ط5، 1983م.

59 ـ المجلسي، محمد باقر(ت 1111هـ)، بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، مؤسسة الوفاء، بيروت ـ لبنان، ط2، 1983م.

60 ـ المدائني، عبد الحميد بن أبي الحديد (ت 656هـ)، شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، بيروت، ط1، 1959م.

61 ـ مطهري، الشهيد مرتضى، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي، ترجمة: عمار أبو رغيف، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

62 ـ مطهري، التجديد والاجتهاد في الإسلام، دار الأضواء، بيروت ـ لبنان، ط1، 1420هـ.

63 ـ المغربي، النعمان بن محمد بن منصور التميمي المعروف بالقاضي نعمان المصري، دعائم الإسلام، تحقيق: آصف فيضي، دار المعارف، مصرـ القاهرة، ط2.

64 ـ مغنية، الشيخ محمد جواد، التفسير الكاشف، دار الكتاب الإسلامي، قم ـ إيران، ط3، 2005م.

65 ـ المفيد، الشيخ محمد بن محمد النعمان (ت 413هـ)، تصحيح اعتقادات الإمامية، دار المفيد للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت ـ لبنان، 1993م.

66 ـ الموسوي، محمد بن الحسين بن موسى المعروف بالشريف الرضي(ت406هـ) ، نهج البلاغة، دار الذخائر، قم، إيران، ط1، 1412هـ.

67 ـ الموسوي، المجازات النبوية، تحقيق: طه محمد الزيني، بصيرتي، قم ـ إيران، لا.ط، لا.ت.

68 ـ النووي، يحيى بن شرف، (ت676هـ)، شرح مسلم، دار الكتاب العربي، بيروت ـ لبنان، لا.ط، 1978م.

69 ـ النيسابوري، الحاكم، (ت405هـ) المستدرك على الصحيحين، دار المعرفة، بيروت لبنان، لا.ط، لا.ت.

70 ـ النيسابوري، أحمد بن محمد بن إبراهيم الميداني، مجمع الأمثال، تحقيق: محمد أبو الفضل، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط2، 1987م.

71 ـ الهيثمي، علي بن أبي بكر، (ت587هـ)، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، دار الكتب العلمية، بيروت ـ لبنان، لا.ط، 1988م.

\* \* \*

1. هذه القاعدة منقولة عن ابن سينا، وما عثرنا عليه في بعض كتبه هو العبارة التالية: «فالصواب أن تسرّح أمثال ذلك ـ أي الغرائب ـ إلى بقعة الإمكان ما لم يذدك عنه قائم البرهان»، (أنظر: ابن سينا، الحسين بن عبد الله(370ـ427 هـ)، الإشارات والتنبيهات، تحقيق: الدكتور سليمان دنيا، دار المعارف، القاهرة ـ مصر، لا.ط، 1968م، ج4 ص160. [↑](#footnote-ref-1)
2. الكافي ج1 ص16. [↑](#footnote-ref-2)
3. الكافي ج1 ص183 [↑](#footnote-ref-3)
4. أنظر: منهج الأشاعرة في العقيدة للدكتور الشيخ سفر الحوالي ص32 [↑](#footnote-ref-4)
5. شرح المواقف: ج ص146 [↑](#footnote-ref-5)
6. ضحى الإسلام: ج3 ص70 [↑](#footnote-ref-6)
7. الكافي: ج1 ص183 [↑](#footnote-ref-7)
8. الحكمة المتعالية: ج9 ص199. [↑](#footnote-ref-8)
9. اشتهر على الألسن نسبة هذه الكلمة إلى أمير المؤمنينQ، لكن الشيخ الصدوق قد أوردهـا في كتـاب «مـن لا يحضـره الفقيـه» ج3 ص156 بصيغـة: «روي عن العالمQ»، ورواها الخزاز القمي في كفاية الأثر ص228 بسنده إلى الإمام الحسنQ فيما قاله في مرض موته، ولم أعثر عليها منسوبة إلى أمير المؤمنينQ. [↑](#footnote-ref-9)
10. بحار الأنوار ج1 ص218 [↑](#footnote-ref-10)
11. قصة الحضارة: ج14 ص173، هناك نصٌّ هام لـ «ول وايرل ديورانت» أكثر تفصيلاً من النص المذكور أعلاه، يتحدّث فيه عن انتشار هذه المعتقدات في أوساط النخبة فضلاً عن عامة الناس وذلك في القرون الوسطى في أوروبا، راجع الملحق في آخر الكتاب. [↑](#footnote-ref-11)
12. من دعاء السحر للإمام زين العابدينQ. [↑](#footnote-ref-12)
13. أنظر: النهاية لابن الأثير ج4 ص215. [↑](#footnote-ref-13)
14. مصباح الفقاهة ج1 ص634. [↑](#footnote-ref-14)
15. الاحتجاج للطبرسي ج2 ص81. [↑](#footnote-ref-15)
16. النهاية في غريب الحديث ج4 ص215. [↑](#footnote-ref-16)
17. وسائل الشيعة، ج17 ص150، الباب 26 من أبواب ما يكتسب به، الحديث3 [↑](#footnote-ref-17)
18. راجع سورة النمل آية17ـ39، وسورة سبأ آية12 [↑](#footnote-ref-18)
19. ونحوه ما جاء في سورة الأحقاف آية29 [↑](#footnote-ref-19)
20. علل الشرائع ج1 ص105 [↑](#footnote-ref-20)
21. الفتاوي للشيخ شلتوت ص 25 [↑](#footnote-ref-21)
22. أنظر على سبيل المثال ما يقوله الدميري في حياة الحيوان: «كان الشيخ عماد الدين بن يونس رحمه الله يجعل من موانع النكاح اختلاف الجنس، ويقول: لا يجوز للإنسي أن يتزوّج جنّية، لقوله تعالى: ﴿وَاللّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً﴾ [النحل: 72].. ونصّ على منعه جماعة من أئمة الحنابلة، وفي الفتاوى السراجية: لا يجوز ذلك لاختلاف الجنس، وفي الغنية: سئل الحسن البصري عنه فقال: يجوز بحضرة شاهدين، وفي مسائل ابن حرب عن الحسن وقتادة أنّهما كرها ذلك، وعن زيد العمى أنّه كان يقول: «اللهم ارزقني جنّية أتزوج بها فتصاحبني حيثما كنت... وقال الشيخ نجم الدين القمولي: وفي المنع من التزويج نظر، لأنّ التكليف يعمّ الفريقين قال: وقد رأيت شيخاًكبيراً صالحاً أخبرني أنّه تزوّج بجنية، انتهى، قلت: وقد رأيت أنا رجلاً من أهل القرآن والعلم أخبرني أنّه تزوّج أربعاً من الجنّ واحدة بعد واحدة، ولكن يبقى النظر في حكم طلاقها ولعانها والإيلاء منها وعدّتها ونفقتها وكسوتها والجمع بينها وبين أربع سواها، وما يتعلّق بذلك وكلّ هذا فيه نظر لا يخفى...»(حياة الحيوان ج1 ص302)، ولاحظ أيضاً ما نقله الشيخ يوسف البحراني حول هذه المسألة في كتابه: الكشكول ج2 ص177، فإنّ هذه الكلمات وسواها ظاهرة في أنّهم يتحدّثون عن وقائع ـ بنظرهم ـ وليس عن مجرّد تمارين افتراضية. [↑](#footnote-ref-22)
23. أقول إنّ هذا المقطع الموجود في المتن هو جزء من نص طويل للفخر الرازي تحدّث فيه عن أقسام السحر وأنهاها إلى ثمانية (راجع التفسير الكبير ج3 ص211 وما بعدها)، والغريب أنّ هذا النص قد أورده المجلسي في بحار الأنوار ج56 ص287 وما بعدها، من دون إشارة إلى مصدره الأساس وهو تفسير الفخر الرازي، وقد نقل معظم الفقهاء في مبحث السحر من المكاسب المحرمة مقاطع من هذا النص عن المجلسي معتقدين أنّ هذا من تحقيقاته، مع أنّ الأمر ليس كذلك كما عرفت، أنظر: كتاب المكاسب للأنصاري ج1 ص261 وما بعدها، ومصباح الفقاهة للسيد الخوئي ج1 ص453 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-23)
24. أنظر: مصباح الفقاهة ج1 ص465. [↑](#footnote-ref-24)
25. أنظر حول تفسير هذه الآية: تفسير الكاشف ج 253. [↑](#footnote-ref-25)
26. بحار الأنوار ج6 ص446؛ وراجع تفسير القمي ج1ص 19 ـ ج2 ص93؛ وتفسير نور الثقلين ج3 ص553. [↑](#footnote-ref-26)
27. الخصال ص119. [↑](#footnote-ref-27)
28. نهج البلاغة ج4 ص30. [↑](#footnote-ref-28)
29. الكافي ج3 ص244. [↑](#footnote-ref-29)
30. م.ن. [↑](#footnote-ref-30)
31. أنظر: الأعراف؛ 18 ـ وطه؛ 66. [↑](#footnote-ref-31)
32. صراط النجاة ج1 ص442 ـ 443. [↑](#footnote-ref-32)
33. يحكى أنّ المحقق الخواجة نصير الدين الطوسي وهو من أبرز علماء الفلك المسلمين، مرَّ في بعض أسفاره على طحّان، له طاحونة خارج البلد، وعزم على المبيت عنده تلك الليلة، وبسبب حرارة الطقس صعد إلى السطح، فقال له الطحّان: إنزل ونمْ في البيت تحفّظاً من المطر، فنظر المحقق إلى الأوضاع الفلكية فلم ير شيئاً فيما هو مظنة للتأثير في المطر، فلم يلتفت لقول الرجل ونام وأصحابه على السطح، ولم يمضِ زمن طويل من الليل حتى هطل المطر، فقام المحقق ومن معه ودخلوا سريعاً إلى الطاحونة، وهنا سأل المحقق ذلك الرجل: من أين علمت أنّها ستمطر الليلة؟ فقال له: إنّ لي كلباً يأوي في كلّ ليلة يحس بهطول المطر إلى داخل الطاحونة! فقال المحقق: يا حسرةً على عمرٍ أفنيناه ولم نبلغ من الفهم والإدراك ما يفهمه الكلب! (أنظر: قصص العلماء للتنكباني ص644، وكتاب المكاسب للشيخ الأنصاري ج1 ص204). [↑](#footnote-ref-33)
34. مروي عن أمير المؤمنينQ في نهج البلاغة ج1 ص128، وعن الإمام الصادقQ في الخصال ص297. [↑](#footnote-ref-34)
35. أمالي الشيخ الصدوق ص500 [↑](#footnote-ref-35)
36. وسائل الشيعة ج17 ص144، الباب 24 من أبواب ما يكتسب به، الحديث 11 [↑](#footnote-ref-36)
37. الكافي ج7 ص414 [↑](#footnote-ref-37)
38. الخصال للصدوق ص253 [↑](#footnote-ref-38)
39. راجع علل الشرائع ج1 ص218 [↑](#footnote-ref-39)
40. علل الشرائع ج2 ص577 [↑](#footnote-ref-40)
41. وسائل الشيعة ج7ص509، الباب 16 من أبواب صلاة الكسوف والآيات الحديث4 [↑](#footnote-ref-41)
42. الميزان ج19 ص72 [↑](#footnote-ref-42)
43. راجع حول هذه الآراء وحول الرواية المذكورة: تفسير مجمع البيان ج9 ص316، والتبيان ج9 ص450 [↑](#footnote-ref-43)
44. الكافي ج4 ص147 [↑](#footnote-ref-44)
45. الخصال:ص387 [↑](#footnote-ref-45)
46. المحاسن ج2 ص346 [↑](#footnote-ref-46)
47. الدروع الواقية لابن طاووس259 [↑](#footnote-ref-47)
48. البحار ج56 ص54 [↑](#footnote-ref-48)
49. راجع الحدائق الناضرة ج14 ص40، وكشف الغطاء ج4 ص456 [↑](#footnote-ref-49)
50. مصباح المتهجد للشيخ الطوسي ص773 [↑](#footnote-ref-50)
51. تأملات في آفاق الإمام موسى الكاظم Q ص47. [↑](#footnote-ref-51)
52. كما أشار في تفسير الميزان ج19 ص72، أقول: المُرْسَل هو ما يرويه عن المعصوم Q من لم يدركه، وأمّا المرفوع فهو ما سقط وسط سنده أو آخره واحد أوأكثر مع التصريح بلفظ الرفع، وهو داخل في المرسل بالمعنى الأعم، ويطلق المرفوع أيضاً على ما أضيف إلى المعصوم Q من قول أو فعل أو تقرير، أي وصل آخر السند إليهQ فهو خلاف الموقوف ويباين المرسل تبايناً جزئياً (راجع معجم مصطلحات الرجال والدراية) [↑](#footnote-ref-52)
53. تحف العقول ص483 [↑](#footnote-ref-53)
54. من لا يحضره الفقيه ج2 ص266 [↑](#footnote-ref-54)
55. تهذيب الأحكام ج5 ص49 [↑](#footnote-ref-55)
56. مطهري، أصول الفلسفة والمنهج الواقعي ج2 ص552 [↑](#footnote-ref-56)
57. أنظر: مجمع الأمثال، لأحمد بن محمد بن أحمد بن إبراهيم الميداني النيسابوري، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الجيل، بيروت ـ لبنان، ط2، 1987م ج2 ص194، وقد أفاد النيسابوري في سبب إضافة البين إلى الغراب: «أن الغراب إذا بان أهل الدار للنُّجْعة ـ المكان الذي تقصده القبيلة طلباً للكلأ ومساقط الثمارـ وقع في موضع بيوتهم يتلمَّس ويتقمّم فتشاءموا به، وتطيروا منه، إذ كان لا يعتري منازلهم إلاّ إذا بانوا فسموه غراب البين..»، وقد ذكر النيسابوري سبعة أمثال عربية تبدأ بكلمة «أشأم»، ممّا يدل على تجذر الاعتقاد بالطيرة عندهم، راجع: المصدر المتقدّم. [↑](#footnote-ref-57)
58. مجمع الزوائد للهيثمي ج5 ص105 [↑](#footnote-ref-58)
59. مسند أحمد ج2 ص220 [↑](#footnote-ref-59)
60. التوحيد للصدوق ص 352. [↑](#footnote-ref-60)
61. صحيح البخاري ج3 ص217 [↑](#footnote-ref-61)
62. صحيح البخاري ج7 ص31 [↑](#footnote-ref-62)
63. شرح مسلم للنووي ج14 ص220ـ 222 [↑](#footnote-ref-63)
64. الكافي ج8 ص198 [↑](#footnote-ref-64)
65. أمالي الشيخ الصدوق ص382 [↑](#footnote-ref-65)
66. الكافي ج8 ص198 [↑](#footnote-ref-66)
67. بحار الأنوار ج14 ص153، تحف العقول ص50 [↑](#footnote-ref-67)
68. أنظر: كتاب من حقوق الإنسان في الإسلام ص 221. [↑](#footnote-ref-68)
69. التجديد والاجتهاد في الإسلام: ص45. [↑](#footnote-ref-69)
70. لسان العرب: ج13 ص301. [↑](#footnote-ref-70)
71. بحار الأنوار: ج60 ص12. [↑](#footnote-ref-71)
72. راجع إصابة العين، حقيقتها، الوقاية منها، علاجها، راجي الأسمر: ص25ـ30. [↑](#footnote-ref-72)
73. راجع المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ج6 ص751 ـ 754 [↑](#footnote-ref-73)
74. راجع بحار الأنوار: ج60 ص7و10، والمجازات النبوية: ص368. [↑](#footnote-ref-74)
75. الخط الأحمر: لموسى برنس ص160 [↑](#footnote-ref-75)
76. بحار الأنوار: ج60 ص10. [↑](#footnote-ref-76)
77. تقدّم توثيق هذا الكلام سابقاً فراجع. [↑](#footnote-ref-77)
78. المجازات النبوية: ص369. [↑](#footnote-ref-78)
79. خبر الواحد: هو الذي يرويه آحاد الناس ولا يصل إلى درجة التواتر وحصول اليقين به. [↑](#footnote-ref-79)
80. نقل ذلك عن ابن عباس وقتادة والضحاك والسدي والحسن، أنظر التبيان للشيخ الطوسي: ج6 ص167. [↑](#footnote-ref-80)
81. راجع على سبيل المثال: بحار الأنوار ج60ص18 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-81)
82. كنز العمال: ج6 ص745. [↑](#footnote-ref-82)
83. رواه أحمد ومسلم والترمذي وصححه، راجع نيل الأوطار: ج9 ص107 [↑](#footnote-ref-83)
84. سنن الدرامي ج2 ص173 [↑](#footnote-ref-84)
85. السنن الكبرى ج6 ص177 [↑](#footnote-ref-85)
86. راجع المستدرك للحاكم ج4 ص215، وسنن ابن ماجة ج2ص1159، وبحار الأنوار ج60ص18 وما بعدها [↑](#footnote-ref-86)
87. شرح نهج البلاغة ج1ص372 [↑](#footnote-ref-87)
88. كتاب الإسلام والبيئة، ص 248. [↑](#footnote-ref-88)
89. راجع بحار الأنوار ج60 ص17 وما بعدها. [↑](#footnote-ref-89)
90. هذا المبحث مأخوذ مما ذكرناه في كتاب «من حقوق الإنسان في الإسلام» في طبعته الثانية، لكني أعدتُ النظر فيه هنا ورتّبته ترتيباً جديداً، وأضفتُ عليه إضافات مهمّة. [↑](#footnote-ref-90)
91. مسند أحمد ج3 ص156. [↑](#footnote-ref-91)
92. سنن الترمذي ج 5ص 417 [↑](#footnote-ref-92)
93. تصحيح اعتقادات الإمامية ص144. [↑](#footnote-ref-93)
94. نهج البلاغة:ج 1ص207 [↑](#footnote-ref-94)
95. نقلنا بعض كلمات هؤلاء الأعلام في كتاب «الشريعة تواكب الحياة» ص:103 فليراجع [↑](#footnote-ref-95)
96. دعائم الإسلام ج2 ص144. [↑](#footnote-ref-96)
97. مقاتل الطالبين، ص23، وعنه بحار الأنوار ج42 ص234. [↑](#footnote-ref-97)
98. راجع كتاب موجز تاريخ الشرق الأدنى ص192. [↑](#footnote-ref-98)
99. راجع الذريعةج15ص141 إلى ص143. [↑](#footnote-ref-99)
100. الاعتقادات في دين الإمامية ص116. [↑](#footnote-ref-100)
101. نهج البلاغة ج2 ص92. [↑](#footnote-ref-101)
102. الميزان ج13ص184. [↑](#footnote-ref-102)
103. طب الأئمة ص28. [↑](#footnote-ref-103)
104. بحار الأنوار ج66 ص425 [↑](#footnote-ref-104)
105. صحيح البخاري ج5 ص2056 [↑](#footnote-ref-105)
106. كنز العمال ج15 ص235 [↑](#footnote-ref-106)
107. عوالي اللالي ج2 ص30 ومجمع البيان:ج4 ص244 [↑](#footnote-ref-107)
108. طب الأئمة R ص:6 [↑](#footnote-ref-108)
109. كشف الخفاء للعجلوني ج2ص214 [↑](#footnote-ref-109)
110. كنز العمال ج8ص 450، بحار الأنوار: ج59 ص267 [↑](#footnote-ref-110)
111. الخصال ص:229 [↑](#footnote-ref-111)
112. الكافي ج6 ص290 [↑](#footnote-ref-112)
113. ويكفيك أن الحرّ العاملي أورد في كتابه الفصول المهمة في أصول الأئمة أربعمائة واثنين وثلاثين(432) حديثاً من طرق الشيعة وحدهم، موزعة على 141 باباً. [↑](#footnote-ref-113)
114. بحار الانوار ج1ص30 [↑](#footnote-ref-114)
115. صحيح البخاري ج4ص99، راجع ما ذكره الشيخ محمود أبو رية ـ نقلاً عن الأطباء ـ بشأن منافاة هذا الحديث للمعطيات العلمية في كتابه «شيخ المضيرة أبو هريرة»ص: 250، ولكن بعض الكتابات الجديدة حاولت التوفيق بين مضمون الحديث وبين المعطيات العلميّة، إلى درجة اعتباره من معجزات رسول اللهP.! [↑](#footnote-ref-115)
116. راجع على سبيل المثال: صحيح البخاري ج 7ص17 وما بعدها والكافي :ج8ص169 [↑](#footnote-ref-116)
117. كنز العمال ج1ص56 [↑](#footnote-ref-117)
118. صحيح مسلم ج7ص31 [↑](#footnote-ref-118)
119. مصنفات الشيخ المفيد ج5 ص115 [↑](#footnote-ref-119)
120. قصة الحضارة ج23 ص113ـ121. [↑](#footnote-ref-120)